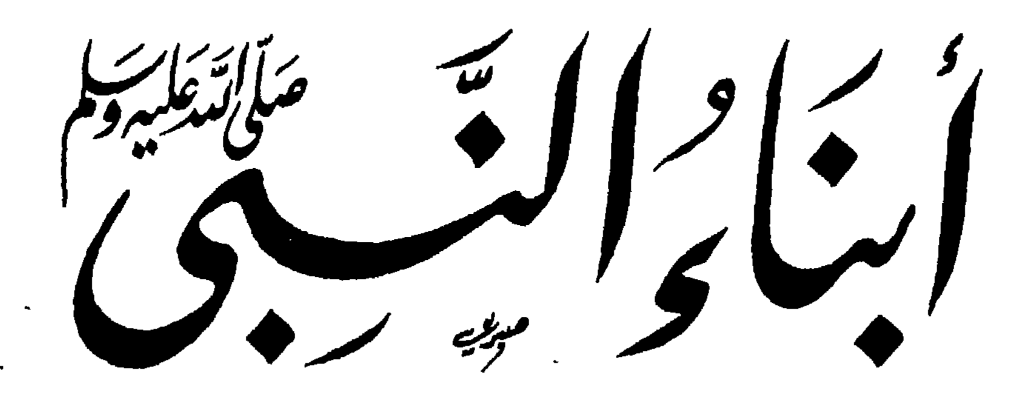


البنون والبنات وأمهاتهم
رضي الله عنهم أجمعين

إبراهيم محمد حسن الجمل

دار الفضيلة

دار الفضيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس: ٤١٨٩٦٦٥٠

المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١

الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية:

دار الاعتصام

للطباعة والنشر والتوزيع

الحمداني عبد الكريم

35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس). الدار البيضاء

الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39



تمهيد

اقتضت حكمة اللّه وإرادته أن يخلق الوجود بكل ما فيه ومن فيه ، وقد فضَّل بعضه على بعض ، فهناك الزّمان المفضل كيوم الجمعة المفضل على ما سواه من أيام الأُسبوع ، وكشهر رمضان ، المفضّل على شُهور العام ، وهناك المكان المفضل كحَرم مكّة والمدينة ، وهناك المسجد الحرام بمكة الذى بناه سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى ، كذلك هناك السّماء المَفضلة ، وهى السماء السابعة .

وإذا انتقلنا بالتفضيل إلى الإنسان ، قرأنا فى القرآن الكريم قول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... ﴾ (٢) .

وقوله جلَّ شأْنُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٧٠) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (٢٥٣) .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتان (٣٣ ، ٣٤) .

بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

★ ★ ★

والتفضيل ... كما يأتى صريحاً واضحاً ... فإنه يأتى كذلك تضميناً ، وليس ظاهراً كما حدثنا القرآن الكريم عن رسول اللّه ﷺ وأهل بيته الأكرمين ، وفى مقدمتهم أبناؤه ﷺ :

﴿ ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[3] وذلك لأسباب وعِلل قد تخفى علينا .

وإذا كنا قد اخترنا من أهل البيت أبناء رسول اللّه ﷺ كى نتحدث عنهم فى هذا الكتاب ... فلأننا نريد أن نتناول سيرتهم ... وما واجهوه من متاعب وشدة فى حياتهم ... على الرغم من أن اللّه قد فضلهم على غيرهم ، فإنهم مع هذا التفضيل ، كانوا بعيدين تماماً عما يمكن أن نطلق عليه الامتياز فى أى شىء فى هذه الحياة الفانية ...

فهاهى السيدة زينب – رضى اللّه عنها – برحلتها الشاقة الطويلة فى هذه الحياة ، وكذلك أُختاها رقية وأُم كلثوم – رضى اللّه عنهما – ، وما صادفهما من متاعب ومشاق وتنقلهما من حال إلى حال ، ومن بيت إلى بيت ، ثم إنهما تركتا الحياة الدنيا وهما فى أوج الشباب .

أما القاسم ... وعبد اللّه ... وإبراهيم – رضى اللّه عنهم – فقد ماتوا صغاراً ... كما اقتضت إرادة اللّه ... ولا راد لقضائه .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (١٦٥) . (٢) سورة آل عمران ، الآية (٤٢) .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٣٣) .

ولقد بدأت كتابى هذا بالحديث عن رسول اللّه ﷺ فى جزء هام من حياته ، وهو الزوج والأب ، لما لهما من صلة بموضوعنا الذى نتحدث عنه ، ثم تحدثت عن الزوجين اللتين كان له منهما الولد والبنات وهما السيدتان خديجة بنت خويلد ، ومارية المصرية - رضى اللّه عنهما - فقد تحدثت عنهما بشىء من التفصيل .

وتحدثت عن البنين من أبنائه وهم : القاسم ، وعبد اللّه ، وإبراهيم ...

وعن البنات وهن : زينب ، وعن زواجها من ابن خالتها ... ثم إسلامها وبقاء زوجها مع المشركين ، وعن التفرقة بينهما بعد أن منع الإسلام زواج المسلمة بغير المسلم أو استمرار هذا الزواج ، ثم استجابة زوجها لما طلبه رسول اللّه ﷺ فردها إليه فى المدينة ما دام لم يسلم ، وتعرضت بالتفصيل لما فعله هبار بن الأسود ببعيرها حتى سقطت على صخر الصحراء ففقدت جنينها وما لاقته من شدة وألم ، ووصولها إلى أبيها ، ثم رجوع ابن خالتها إليها وإسلامه وإعادة عقد زواجها ، ثم موتها متأثرة بما أصابها من قبل .

وتعرضت لابنتى الرسول ﷺ رُقية وأُمّ كلثوم بالحديث عن زواجهما من ابنى أبى لهب ، ثم ردهما إلى أبيهما ﷺ ، ثم زواجهما من عثمان بن عفان - رضى اللّه عنه - الواحدة بعد الأُخرى ، وقد فارقت كل منهما الحياة فى عز الشباب .

وختمت ذكر البنات بالسيدة فاطمة - رضى اللّه عنها - ، وتعرضت بالتفصيل لزواجها من على بن أبى طالب - رضى اللّه عنه - وما لاقته من شدّة فى حياتها ، وأنها لم تتميز فى الدنيا عن باقى المسلمات بشىء ، وكان من الممكن أن تعيش فى الترف والنعيم ، ولكن رسول اللّه ﷺ يأبى إلّا أن تكون كإحدى نساء المسلمين بلا تفرقة ولا تفضيل فعاشت هى وزوجها وأولادها كباقى المسلمين .

وعنـد اللّـه التفضيل والمنزلة والمكانة ، وفى حيـاة أولاده ﷺ التأسى والسلوان والمحبّـة والتقـدير ، ولا نملك إلّا أن نقـول كما نقـول فى صلاتـنا كل وقت وحين :

« اللَّهُمَّ صَلِّ عَـلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّـدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّـدٍ وَعَـلَى آلِ مُحَمَّـدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِى العَالَـمِينَ إِنَّكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ » ، ومن الآل الأولاد – رضى اللّـه عنهم أجمعين – .

اللهم ألحقنـا بهم ، وأجزل لنـا الأجر والثـواب .

إبراهيم محمد حسن الجمل



رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَوجاً وَأَباً

أَوَّلًا – الرَّسُول ﷺ الزَّوْج :

قد يتزوج الواحد منا امرأة واحدة ، فلا يتمكن من أن يحسن قيادتها ، وقد يتزوج اثنتين ، فينطبق عليه قول الشاعر فى أبياته المعروفة التى مطلعها :

* تَزَوَّجتُ اثْنَتَين لفَرط جَهْلى *

وقد يتزوج ثلاث زوجات فيمسك العصا ، أو يتزوج أربعاً ، فلا يستطيع قيادتهن إلَّا بـ (الكرباج) ومعه ما حوته القواميس من ألفاظ الشتائم أو السباب ، وتلك – والله – طبيعة البشر القاصرة .

أما أن يتزوج أكثر من هذا العدد برخصة خاصة من رب السماء لغاية يعلمها المولى سبحانه وتعالى ، وقد تغيب عن تفكيرنا المحدود ، ويعاشرهن سنوات وسنوات ، فيحسن القيادة ، ويبلغ بها القمة مع اختلاف الطبائع والغايات والجنسيات ، فلا تخرج من فمه كلمة نابية لواحدة منهن ، ولا يشتم ، ولا يسب ، أو يستخدم القوة ، أو الأوامر الصارمة ، أو يكمم الأفواه ، فلا تتكلم الواحدة إلَّا بإذن خاص ، فهذا ما لم يحدث إلَّا لخاتم الأنبياء والمرسلين (محمد بن عبد الله ﷺ) .



ذلك ما كان عليه الزوج والنبى والرسول ﷺ ، فقد عقد على ثلاث عشرة ، لم يدخل على اثنين منهن ، وهما أسماء بنت النعمان ، وعمرة بنت يزيد[1] ، الأُولى وجد بها بياضاً فردّها ، وهذا عيب خِلْقى ، والثانية كانت حديثة عهد بكفر ، فلما قدمت على الرسول ﷺ استعاذت من الرسول ، فقال لها : « منيع عائذ بالله » وردها إلى أهلها ، ولم يدخل بها ﷺ .

أما الإحدى عشرة اللاتى دخل بهن ﷺ ، فقد ماتت اثنتان فى حياته ﷺ وهما السيدة خديجة بنت خويلد – رضى الله عنها – ، وتوفيت بمكة قبل الهجرة ، والثانية ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وتوفيت بمكان قريب من مكة يسمى (سرف) ، فقد تمنت أن تموت بهذا المكان وهو الذى بنى بها ﷺ فيه ، فحقق الله لها ما أرادت .

أما الزوجات الباقيات فهن تسع :

سودة بن زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وزينب بنت خزيمة ، وأُم سلمة ، وأُم حبيبة ، وزينب بنت جحش ، وصفية بنت حيى ، وجويرية بنت الحارث ، يضاف إليهن مارية المصرية التى أهداها له المقوقس ، وكلهن توفين بعده ﷺ .



لم يضرب قطّ إحدى زوجاته ، فلم يؤثر عنه أن يده الشريفة امتدت على واحدة منهن ، ولم تصدر منه كلمة نابية لواحدة منهن ،

---

(١) هذه رواية ابن هشام فى كتابه .

بل لقد أدَّبَنَا وعَلَّمنا الطريقة المثلى التى ينبغى للمسلم أن يعامل بها زوجته .

فقد روى عنه ﷺ أنه قال : « أَمَا يَسْتَحِي أَحَدُكُمْ أَنْ يَضْرِبَ امْرَأَتَهُ كَمَا يَضْرِبُ العَبْدُ ، يَضْرِبُهَا أَوَّلَ اللَّيْلِ ، ويُجَامِعُهَا فِى آخِرِهِ » [1] .

★ ★ ★

ورسول الله ﷺ يُعلِّمنَا أن المرأة مهما ادّعتْ القُوة ، وكابرت وتَعالَتْ ، وطلبت المساواة ، فإنها ضعيفة تحتاج فى معاملتها إلى الرّأفة والشَّفقة والرَّحمَة ؛ لأنها « خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ لن تستقيم لك على طريقة ، فإذَا استمتعت بها استمتعت وبها عِوَجٌ ، وإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمَهُ كَسَرْتَهَا وكَسْرُهَا طَلَاقُهَا » [2] .

★ ★ ★

لقد أفاض ﷺ القول فى إكرام الزوجة ، وحث حثًا شديداً على معاملتها بالحُسنَى فى كثير من أحاديثه ﷺ ، نذكر منها قوله :

« اتَّقُوا اللهَ فِى النِّسَاءِ » [3] .

« النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ » [4] .

« خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » [5] .

« لَا يَفْرَكُ [6] مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ آخَر » [7] .

---

(١) كنز العمال (٤٤٩٨٣) . (٢) البخارى (٣٤/٧) .

(٣) رواه مسلم : كتاب الحج (١٤٧) ، والترمذى (١١٦٣) .

(٤) كشف الخفا (٤٥٣/٢) . (٥) الترمذى (٣٨٩٥) ، وابن ماجه (١٩٧٧) .

(٦) يَفْرَك من فَرَك يَفْرَكُ فَرَكا : كَرِهَ وأبْغَض ، بخلاف فَرَك يَفْرُك فرْكاً : حكّه .

(٧) مسلم : الرضاع ، باب ١٨ رقم (٦٣) .

« اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً »[١] .

« الرَّجُلُ رَاعٍ فِي بَيْتِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا »[٢] .

وهذا ما أدَّبنا به المولى سبحانه وتعالى ، ووردت آيات القرآن الكريم تؤكد ما عليه الرسول ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ... ﴾[٣] .

﴿ ... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ... ﴾[٤] .

﴿ ... فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ... ﴾[٥] .

﴿ ... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴾[٦] .

★ ★ ★

كان ﷺ قدوة طيبة بمعاملته لزوجاته ، كان مَثَلًا أعلى يحتذيه كل مسلم ، كان يترك لزوجاته حرية الكلمة ، لِيَقُلْنَ ما يُرِدْنَ قوله ، ويُعَبِّرْنَ عن آرائهن بكل شجاعة ما دام ذلك لا يمسّ شعور الأخريات ، أو يُغضب الله سبحانه وتعالى ، أو يُسيء إلى تسامحه ﷺ .

وله فى ذلك مواقف طيِّبة ، تدعُونا إلى التّأسى به ، والاقتداء بما كان يفعله ﷺ ، فحينما وصلت زوجته صفية بنت حيى - رضى

(١) سبق تخريجه بلفظ : « خُلقت من ضلع » بالصفحة السابقة .
(٢) رواه البخارى (٦/٢) ، والترمذى (١٧٠٥) .
(٣) سورة الروم ، الآية (٢١) .
(٤) سورة النساء ، الآية (١٩) .
(٥) سورة البقرة ، الآية (٢٣٢) .
(٦) سورة البقرة ، الآية (١٨٧) .

الله عنها - إلى المدينة ، ونزلت كما أمر رسول الله ﷺ على عائلة الصحابى الجليل حارثة بن النعمان (رضى الله عنه) لكى تكمل النّسوة زينتها فى ليلة عرسها ، ودخول الرسول ﷺ بها ، وتسامع نساء المدينة عنها ، فجئن ينظرن جمالها ، وخرجت السيدة عائشة - رضى الله عنها - متخفية ، ولمحها النبى ﷺ ، فتتبّع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت ابن النعمان (رضى الله عنه) ، فانتظر حتى خرجت فأدركها ، وأمسك بثوبها ، وسألها مبتسماً : كيف رأيت يا شُقَيْراء ؟

فَهَزَّتْ كتفيها قائلة : رأيت يهودية .

فرد النبى ﷺ بالحُسنَى قائلًا : « لَا تقُولى ذلك ؛ فإنها أَسْلَمتْ وحسُنَ إسلامها »[1] .

★ ★ ★

كان ﷺ يُخاطب نساءَه برفق ولين ، ولا يجد مانعاً أن تناقشه الواحدة منهن ، وأن يترك لها المبادرة ، وبصبر وتؤدة وهدوء يرد على من تناقشه بالدليل والحجة .

ففى حديث بيعة الرضوان قال رسول الله ﷺ : « لَا يَدخُل النَّار - إن شاء الله - أَصحاب الشَّجَرة والَّذينَ بَايعُوا تحتها » .

فتأبى السيدة حفصة - رضى الله عنها - إلَّا أن تناقشه وترد عليه قائلة : « بلى يا رسول الله ... » .

فيسأل : من أين جئت بهذا ؟

فتلت الآية الكريمة : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا ﴾[2] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٨٠) بألفاظ مختلفة . (٢) سورة مريم ، الآية (٧١) .

فما كان من النبى ﷺ إلَّا أن تلا الآية التى بعدها : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[1].

★ ★ ★

كان النبى ﷺ أحياناً يدعو أبا بكر (رضى الله عنه) إلى بيت السيدة عائشة – رضى الله عنها – ، وتأبى السيدة عائشة إلَّا أن تناقش زوجها فيما يعرض لها من أمر أمام أبيها ، وكان – رضى الله عنه – يأبى أن تناقش زوجها ، وكثيراً ما نهر زوجته – رضى الله عنه – ، وأغلق عليها باب المناقشة ، فيتألم من أن يرى ابنته تفعل ذلك مع الرسول ﷺ فيغضب ويثور على ابنته ، ولكن النبى ﷺ يهدئ من روعه ويقول : « ما لهذَا دَعَونَاك »[2].

وكان من الممكن أن يتركه ليلقى على ابنته درساً لن تنساه ، ولكن خُلُقَهُ الكريم يأبى ذلك .

★ ★ ★

كان النبى ﷺ يُشاور أهل بيتهٔ وزوجاته إذا تأَزَّمَتْ الأُمور ، فيشرن عليه بالرأى الصَّائب ، ونذكر من ذلك ما حصل يوم الحديبية ، وقد كتب رسول الله ﷺ كتاب الصُّلح المشهور ولم يرضِ المسلمون عنه ، فقد غابَ عنهم حِكْمَته ، وَبُعْد نظر المصطفى ﷺ ، وكان المسلمون يريدون أن يدخلوا مكة عنْوَة فى الوقت الذى منعهم كتابة هذا الصلح من الدخُول ، فأصابهم هَمّ وغَمّ لمجيئهم قُرْب مكة ، وحرمانهم من أداء العُمْرَة .

---

(١) سورة مريم ، الآية (٧٢) ، والحديث فى طبقات ابن سعد (٧٣/١/٢) .
(٢) رواه عبد الرزاق فى « مصنفه » (٢٠٩٢٤) .

ثم طلب منهم رسول الله ﷺ النَّحر والحَلْق أو التَّقصير ، وهم فى مكانهم قبل أن يرجعوا إلى المُدينة ، وكرر عليهم طلبه ثلاث مرات ، فلم يقم منهم رجل بما أُمر .

دخل الرسول ﷺ على زوجته السيدة أُمّ سلمة – رضى الله عنها – مهموماً حزيناً مِمّا فعله الناس ، فلما سألته عمّا به ، ذكر لها ما لقى من أصحابه .

فقالت – رضى الله عنها – : يا نبى الله اخرج إلى المسلمين ، ثم لا تُكَلِّم أحداً حتى تَنْحَر بدنتك ، وتدعو حالقك فيحلق شعرك .

عمل الزوج ﷺ بما أشارت به أُمّ سلمة زوجه (رضى الله عنها) ، فلم يُكَلِّم أحداً ، فَنَحَر وحَلَق ، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فَنَحرُوا وجعل بعضهم يحلق لبعض ، وأسرعوا فى ذلك حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّا وهمّا نادمين على ما كان منهم تجاه نبيهم ﷺ .

★ ★ ★

كان النبى ﷺ فى معاملته مع زوجاته يَرُدُّ الكَلِمَةَ بالكَلِمَةِ وبالدَّليل ، لا يجعل من الأُمور التى قد تكون بسيطة مجالًا للإفراط فى الكلام والزّيادة والتعليق ، وتحميل الأُمور ما لا تطيق ، وفرض استنتاجات قد لا تحصل ، وربطها بأُمور سابقة وإلقاء الخُطَب والمواعظ ، لكن رده الشريف كثيراً ما يكون فيه الظّرافة واللُّطف والإلماح البعيد .

جاءته ابنته الحبيبة السيدة فاطمة – رضى الله عنها – باكية شاكية تذكر ما قالته لها زوجته السيدة عائشة – رضى الله عنها – فأغضبها ، فذهبت إلى زوجها ﷺ تشكوها له .

قالت – رضى الله عنها – : إن زوجتك عائشة – رضى الله عنها – قالت لى : إن أباك تزوجنى بكراً ، وتزوج أُمَّكِ ثَيِّباً ، ثم اشتدت فى البكاء ، فضمها النبى ﷺ إلى صدره وقال : « قُولى لَهَا : إِنَّ أَبِى تَزَوَّجَ أُمِّى وَهُوَ بِكْرٌ ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ قَبْلَهَا » .

★ ★ ★

كان فى إمكان الرسول ﷺ أن يسكن البيوت ذات الغُرَفِ المُجَهَّزَةِ بالفَرْشِ والدِّيباج والحرير ، كما كان يعيش الملوك والحُكَّام ورُؤَساء القبائل فى ذلك العهد لكنها كانت حُجُرَات بسيطة جدًّا حول المسجد : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ [1] .

فماذا كان فى بيت زوجته المُحَبَّبَةِ إِلَيْهِ السيدة عائشة – رضى الله عنها – ؟ وكانت أقرب الزوجات إلى قلبه ﷺ ، وأولى بالوثير من الفُرُش .

كان هذا البيت حجرة من الحُجُرَاتِ التى بُنيت للزوجات حول مسجده ﷺ ، بُنيت هذه الحجرة بالطوب اللَّبِن [2] ، وسُقِّفَتْ بِسَعَف النَّخِيلِ ، وَوُضِعَ فيها فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض إلَّا حصير ، ومن فتحة الباب أُسْدِلَ سِتَارٌ من شَعْر .

الرسول ﷺ بهذا يَضرب لنا المثل الأَعلى ليبين لنا أن سَعَادة المرْءِ ليست فى النَّاعم والغَالى والنَّادر من الفراش ، فكم من قُصُور

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (٤) .

(٢) **الطوب اللَّبِن** : الطوب من الطين ولم يدخل النار .

أُنْفِقَ عليها آلاف الآلاف وسكانها يعيشون فى سأم وَمَلَلٍ ، فالسعادة ليست فى المغالاة فى الفرش واللباس ، وإنما هى فى الإيمان والرِّضا والإخلاص والرَّجَاء فيما عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - .

★ ★ ★

أرادت صحابية جليلة وقد زارت بيت الزوجة السيدة عائشة - رضى الله عنها - ، ورأت ما فيه من فراش ، فأَحبت أن تهدى السيدة عائشة - رضى الله عنها - فراشاً ناعماً ، فما أن وصل الفراش إلى حُجرة الزوجة حتى ردهُ النبى ﷺ إلى صاحبته .

لقد كانت الزوجات جميعهن فى غاية السَّعادة والرِّضا مع هذا الزَّوج العَظيم بالإيمان القَوىّ والرِّضا التام والرُّجولة النَّادرة !!



ثم إن الله سبحانه وتعالى اختار زوجة من زوجاته ﷺ هى أحبهن إليه ، لنتعلَّم على يديها درساً عمليًّا صعباً - نحن المسلمين - لمشكلة تتنازعها الأهواء والأوهام والهواجس النفسية تتكرر كثيراً مع مرور الأيام والسنين فى بيوت الزوجية ، ويترتب عليها أُمور جِسامٌ من هدم البيوت تحت نير الإشاعات المغرضة والكذب والافتراء فأعطتنا درساً ينبغى أن نعيه جيداً ، وأن تكون لنا عبرة وعظة ، وهى فى بيت من بيوت الزوج محمد ﷺ ، وتحت سمع وبصر الزوج .

ونحن أَوْلى بأن نتعرف عليه ، وبخاصة فى زماننا هذا ، فقد تدور إشاعة وهميّة حول زوجة ورجل يتناقلها المغرضون ويوشون

بها ويُحَمِّلونها ما لا تطيق ، بل قد يوصلونها إلى الزوج بوسيلة كاذبة ، فيحصل ما لا تُحمد عُقْبَاهُ من خَراب للبيوت ، وتشتيت للأُسرة ، وقد تُؤَدِّى تلك الوشاية إلى السِّجن أو القتل .

★ ★ ★

كانت بطلة تلك الحادثة هى زوجة الرسول ﷺ عائشة بنت أبى بكر – رضى الله عنهما – ، فقد كان من عادة الزوج ﷺ إذا خرج لغَزْوَة من الغَزَوَات أن يُقرع بين الزوجات ، فإذا خرجت القُرْعَةُ لواحدة منهن أخذها معه ، وخرج سهم الزوجة عائشة – رضى الله عنها – فسافرت معه ﷺ ، وفى أثناء العودة ، وقد اقتربوا من المدينة ، استراحَ الناس استعداداً لملاقاة الأهل ؛ ولما هَمُّوا بالمسير تفَقَّدتْ السيدة عائشة عقْدهَا ، فلم تجده فحسبت أنها فقدته حينما ذهبت لقضاء حاجتها ، فرجعت إلى المكان تبحث عنه حتى وجدته ، ولما رجعت إلى مكانها كانَ القوم قد أخذوا مسيرتهم ، وحملوا معهم الهودج الخاص بها – رضى الله عنها – ، ووضعوه على الرَّاحلَة يقيناً منهم بأن السيدة عائشة – رضى الله عنها – فيه .



وبدأت المسيرة ليلًا ، وكان من العادة أن يتأَخَّر بعض الرِّجال عن الجيش فَرُبَّمَا يكون هناكَ من تخلَّف لسبب من الأسباب ، وقد يكون ... فقد رأى واحد من المتتبعين سَوَاد إنسان ، فلما اقتربَ منها عرف أنها زوجة الرسول ﷺ ، فأناخ راحلته وركبتها ، وانطلق يقودها حتى أتيا الجيش قُرب الظَّهيرة .



أشاع المنافقون ما أشاعوا ، واتهموا الزوجة عائشة – رضى الله عنها – باتِّهَامات خسيسة ، وروجوا لها ، وزادوا عليها ما زادوا ، ووصل الخبر إلى الزوج رسول الله ﷺ ، فآلمه أن يَسمع عن بنت أبى بكر الصِّديق – رضى الله عنهما – ما سمع ، فهى الزوجة والقريبة من القلب ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يتابع الأمر كى يصل إلى الحقيقة ، وبخاصة أنَّ ما أُشِيع أخذ ينتشر ، ومن كثرة الولوغ فيه ، وتناقله أصبح وكأنه حدث وقع .

★ ★ ★

فى سِرِّيَّةٍ تامَّةٍ أخذ الزوج ﷺ يَدْرُسُ المشكلة ، ومشكلة مثل هذه إن كانت صحيحة لا تحدث من فراغ ، فلها مقدمات واستعدادات ومحاولات قبل أن تقع صاحبتها فى مثل ما اتهمت به .

لم يسأل الزوجة ، ولم يحاول أن يظهر لها تغيره وحزنه ، ولم يُلَمِّح لها من قريب أو بعيد ، وإنما سأل أقرب الناس إليه أُسامة ابن زيد – رضى الله عنهما – ، فقال : « هُمْ أَهْلُكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْراً » .

أما عَلِيٌّ بن أبى طالب ابن عمِّه – رضى الله عنه – ، فكان ممَّا قاله : « ... واسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ » .

فسأل الزوج ﷺ جاريتها بريرة ، فقالت : « والَّذِى بَعَثَكَ بالحقِّ ما رَأَيت عَلَيْهَا أَمْراً أَغْمِطُهُ (١) عليها غَيْرَ أَنَّها جَارِيَةٌ حديثة السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِين أَهْلِهَا فَتَأْتِى الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ » .

---

(١) غمط : أنكر .

وسأل ﷺ زوجته وابنة عمته زينب بنت جحش - رضى الله عنها - ، وهى تنافس عائشة - رضى الله عنها - فى حبها للزوج ﷺ ، فقالت بعد أن استعاذت : « حَمَىٰ اللهُ سَمْعِي وبَصَرِى ، وَاللهِ ما عَلِمْتُ إلّا خَيْراً » .

★ ★ ★

أَلَمَّ بالزوجة عائشة - رضى الله عنها - مرض ، فأرسلت إلى أُمِّها لتمرضها فى بيت الزوجية ، وكانت الأُمّ أُمّ رومان ، والأب أبو بكر الصِّديق - رضى الله عنهما - على علم بهذه القضية لكنهُمَا لم يتكلَّمَا فى الموضوع لابنتهما ، أو للرسول ﷺ .

كان الزوج ﷺ يدخل على الزوجة ومعها أُمُّها فيسلّم ، ثم يقول : كيف تيكم ؟ ولا يزيد ! .

ثم رأت عائشة - رضى الله عنها - أن تُوفِّر على أُمِّها متاعب الانتقال ، فاستأْذَنتْ الزوج ﷺ فى أن تذهب إلى بيت أبيها ، فأَذنَ لها .

كل ذلك ولا عِلْمَ للسيدة عائشة - رضى الله عنها - بما يجرى فى المدينة وعلى ألسنة الناس إلى أن خَرجَتْ مع صحابية مرّة لشأن من الشئون ، وتبادلَا الحديث ، فأَخْبرتهَا الصَّحابية بما يجرى على ألسنة المنافقين ، فلم تكمل عائشة - رضى الله عنها - طريقها ورجعت مُسْرِعَةً إلى أُمِّها ، وهناك قالت تخاطب أُمَّها :

« يا أُمَّاه ... ما يتحدث الناس ؟ » .

فعرفت الأُمّ أن ابنتها علمت بما حدث ، بما يجرى على ألسنة المنافقين ، فطيبت خاطرها ، ثم قالت : « يا بنية ... هَوِّنى عليك » .

قالت الزوجة – رضى الله عنها – : « أى سبحان الله ! أَوَ قَدْ تحدث الناس بهذا ؟!! وراحت تبكى ليلها ونهارها » !

★ ★ ★

علمَ الزوج ﷺ أن الزوجة عرفت حديث الناس ، فدخل عند أبى بكر – رضى الله عنه – فسلَّم ... ثم جلسَ ... وتَشهَّد ... ثم قال مخاطباً زوجته : « أما بعد يا عائشة ... فإنِّى قد بلَغنى عنك كذا وكذا ، فإنْ رأَيت أنك بريئة فَسيُبرئك الله، وإن كنت أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فاستغفرى اللهَ وتوبى إليه » .

تقول السيدة عائشة – رضى الله عنها – ، وقد تقلَّصت دموعها وجفت ، فقلت لأبى : « أَجبْ عَنِّى رَسُول الله ﷺ » .

فقال أبو بكر – رضى الله عنه – : « واللهِ – يا بنيتى – ما أدرى ماذا أقول لرسول الله ﷺ » .

فقلت لأُمِّى : « أَجيبى عَنِّى رَسُول الله ﷺ » !

قالت مثل ما قاله أبو بكر – رضى الله عنهما – .

قلت – أى السيدة عائشة رضى الله عنها – : « إِنِّى – واللهِ – لقد عَرفت أنكُم سَمعتُم بهذا حتى استقَرّ فى نفُوسكم ، وصدَّقتم به ، فإن قلت لكم : إنِّى بريئة – والله يَعلَمُ أنى بَريئة – لا تُصدِّقُوننى ، ولئن اعترفْتُ لكم بالأَمر – والله يَعلَمُ أنى بريئة – لتصدقُوننى ، والله والله ما أَجد لى ولكم مثلاً إلَّا كما قال يعقوب أبو يوسف – عليهما السلام – : ﴿ ... **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ**

الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1]، ثم تحولت فاضطجعت على فراشى .

★ ★ ★

سكت الجالسون ، ولم يجدوا ما يقولونه ، وأخذ رسول الله ﷺ ما يأخذه حينما ينزل عليه الوحى ، فلما سرّى عنه ، ضحك ، ثم قال : « أبشرى يا عائشة ... أمّا الله فقد برأك » .

قالت أمّ عائشة – رضى الله عنهما – : « يا عائشة قومى إلي رسول الله ﷺ » .

فقالت عائشة – رضى الله عنها – : « والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلَّا الله هو الذى برأنى » .

ثم خرج إلى الناس ﷺ ، وتلا عليهم آيات الإفك[2] .

★ ★ ★

ويضرب لنا الزوج العظيم ﷺ بهذه المعاملة لزوجته السيدة عائشة – رضى الله عنها – ، وقد تلقي ما أُشِيع ، فلم ينفعل ولم يخرجه ما سمع عن حِكْمته ومعالجته للأمر وألقى علينا درساً عمليًا فى مُعالجة ما يُصادفنا من أمثال هذه المشكلات ، فلا نَتعجَّل قَطْع الصِّلة ، ولا نثير النّقمة ، ولا نَستَسْلم للحَمية الجاهلية ، فنغلظ القول ، ونسيء الظَّن ، وتُقلَب الحياة إلى جَحيم ، وليكن رائدنا

---

(١) سورة يوسف ، الآية (١٨) .

(٢) آيات الإفك فى سورة النور ، الآيات (١١ – ٢٦) ، وحديث الإفك رواه البخارى (٦/١٣٦) ، ومسلم : التوبة (٥٦) ، وأحمد (٦/١٠٣ ، ١٩٧ ، ٥١١) .

التأَسى ، بما كانَ يفعله ﷺ مع زوجاته من الرِّفق والمروءَة والمودَّة وطول الأناة والتعقّل والاقتداء بما كان يفعل الزوج والرسول ﷺ حتى تنكشف الأُمور ، ونصل إلى الحقيقة كاملة .

★ ★ ★

كانت عائشة - رضى الله عنها - قريبة إلى قلبه ، وكان يود - عليه الصلاة والسلام - أن تكون كل الزوجات فى منزلة واحدة ، لكنه لا يستطيع أن يتحكم فى ميلِ قلبه ، فكان يستغفر الله ، ثم يقول ﷺ : « اللَّهُمَّ هذا قَسْمِى فيما أَملك فلَا تلمنى فيما لا أَملك »[1] .

كان ﷺ يتولى خدمة البيت مع زوجاته ويقول : « خِدْمَتُكَ زَوْجَتَكَ صَدَقَةٌ »[2] .

كان ﷺ يمرّ كل يوم على نسائه فيداعبهن ، ويفيض فى الحديث معهن ولا يرينه إلَّا بَاسِمَ الوجه ، يتودد إليهن ويستمع إلى حديثهن ويرفق بهن فى قوله وعمله .

ولكن ﷺ حين جاءه المرض ، ولم يستطع أن يزورهن كما تعوّد كل يوم فبعث إليهن ، وسألهن : « أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ »[3] ليقلن عند عائشة ، فقد عرفن ما يقصده ﷺ ، وكان فيما فهمن ، فقد كانت تلك ... رغبته فى أن يقيم فى بيت عائشة - رضى الله عنهن - .

---

(١) أخرجه الترمذى : كتاب النكاح ، باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر رقم (١١٤٠) .

(٢) انظر : « كنز العمال » (٤٥١٣٨) .

(٣) البخارى (١٢٨/٢) ، (٣٧/٥) ، (١٦/٦) ، (٤٤/٧) ، ومسلم : فضائل الصحابة (٨٤) .

ثانياً – الرَّسُولُ ﷺ الأَب :

أما أُبُوَّتُهُ فكانت أولًا بالتبنى على ما كان عليه الحال فى الجاهلية ، وتاريخ هذا التبنِّى يُخبرنا أن زيد بن حارثة بن شرحبيل (رضى الله عنه) كان ذاهباً مع أُمِّه إلى أخواله على بُعْدٍ من قبيلته بنى كلب ، حيث تعرَّض لحادث اختطاف وهو ابن ثمان سنوات ، وبيع فى السوق إلى ابن أخ السيدة خديجة – رضى الله عنها – وهو حكيم بن حزام ، ولما رأى أن عمَّته قد رغبت فى شرائه أهداه إليها ... ، لكنها بدورها حين رأت أن زوجها محمداً ﷺ يستخدمه فى حاجاته كثيراً ، أهدته له ، فكان عبداً له على طريقة الناس فى ذلك الوقت ... لكن والده أبا زيد جزع عليه جزعاً شديداً ، وبكى لفقده ، وسكب دموعه فى شعر مؤثر جاء فيه [1] :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدرى وإنى لسائل
أغالك بعدى السهل أما غالك الجبل

تذكرنيه الشمس عند طلوعها
وتعرض ذكراه إذا غربها أفل

سأعمل نص العيش فى الأرض جاهداً
ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل



---

(١) الشعر فى السيرة النبوية ، لابن هشام (ج ١ ص ٢٦٥) دار إحياء التراث – بيروت .

أخذ يبحث عنه في طول البلاد وعرضها ، حتى عثر عليه في مكة عند محمد بن عبد الله ﷺ ، وذلك قبل البعثة ، فلما طلبه أبوه ، وضحى في سبيل إرجاعه إليه بكل ما يملك ... خَيَّرهُ محمد ﷺ بين أبيه وبين المقام عنده وقال : « إن شئت فأقم عندى ، وإن شئت فانطلق مع أبيك » .

فقال زيد : « أختار أن أبقى مع محمد ﷺ » .

تعجّب أبوه ، وأخذ يلُومه ، ويشتدّ في لومه :

« يا زيد تختار العبودية على أبيك وأُمك » ؟

فقال زيد : « إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أُفارقه أبداً » .

عند ذلك أخذه محمد ﷺ ، وقام إلى الملأ من قريش فقال : « اشْهَدُوا أَنَّ هذا ابنى وارثاً وموروثاً »[1].

رأى أبوه ذلك ، فطابت نفسه ، وصار يدعى : زيد بن محمد ، وكان هذا أعظم دليل على ما يتميز به محمد ﷺ قبل الرسالة من التَّسامى والعُلوّ والمحبَّة التى يتصف بها الأب ...

فلما نزل قول الله سبحانه وتعالى في المتبنين : ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ** ... ﴾[2] الآية .

رَدَّ ﷺ اسمه إلى أبيه ، لكنه ظل ملازماً للرسول ﷺ حتى استشهد في سبيل الله .

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٨/٣) . (٢) سورة الأحزاب ، الآية (٥) .

ولما جاء الإسلام شملت أبوته ﷺ المسلمين جميعاً ، فوجدوا فى كنفه الرعاية والحب ، وأصبح مسئولًا عنهم ، وأولى بهم من أنفسهم نلمس هذا فى الآية الكريمة من قوله تعالى : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُواْ إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً** ﴾[1] .

وقد بلغ من ولايته وأُبوته ﷺ لهم أنه كان يقضى ديونهم ويزوج راشديهم ، ويأخذ بأيديهم إلى طرق الهُدى والرّشاد ، ويسلك بهم طريق الحقّ والصّواب ، وقد قال النّبىّ ﷺ : « أَنَا أَولَى بالمُؤْمنين من أَنفُسِهِمْ ، فَمَنْ تُوفِّى وعليه دَيْن فَعَلىّ قَضَاؤه ، ومَنْ تَرَك مالًا فلورثته »[2] .

وهذه هى الأُبوة الرّوحية ، والتى كانت صفَة أَصيلَة اتصف بها الرّسُول ﷺ ، وهو المحيط بكل جوانب النّفس الإنسانية ، والخبير بما يجب أن تكون المعاملة بينه وبين الناس على اختلاف درجاتهم ومكانتهم وسنيهم ، فكان جديراً بأن يكون أباً للجميع .

ولقد كان (هند) ابن السيدة خديجة - رضى الله عنها - من زوجها السابق صغيراً حينما تزوجها محمدٌ ﷺ ، فكان دائماً يتحدث عن النبى ﷺ قبل الرسالة وبعدها يقول : « أبى محمد » وذلك لِمَا رآه من العطف والحنان والرأفة التى لا تكون إلَّا فى الآباء .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٦) . (٢) البخارى (١٢٨/٣) .

أما ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ... ﴾[1] الآية ، فإنها نزلت فى حالة خاصة ، وهى أبوة زيد بن حارثة التى حرّمها الإسلام ، وهى أبوة التَّبَنِّى ، وذلك أن الأب لا يتزوج زوجة ابنه ، وعندما نزل الوحى على رسول الله ﷺ بأن يتزوج زينب بنت جحش - رضى الله عنها - ، وكانت زوجة لزيد بن حارثة ابنه بالتبنى فى الجاهلية ، ثم انقضت عِدَّتُها وتزوجها النبى ﷺ ، قال جماعة من الذين أسلموا حديثاً : إن النبى ﷺ تزوج زوجة ابنه ... فبين المولى سبحانه وتعالى فى تأكيد واضح أن زيداً هذا ليس ابناً حقيقيًا لمحمد ﷺ ، فلقد أبطل الإسلام أبوة التبنى ، وهكذا كانت تلك ... حادثة خاصة نزلت فيها هذه الآية .



أما أبوته الخاصة ، والتى هى لأبنائه من صُلْبه ﷺ ، فإننا نضيف إليها ما اتصف به رسول الله ﷺ من صفات الكمال الإنسانى من العَطْف والرَّحمة والمحبَّة ، وكان ما يختص به ﷺ من أبوته العامة .

فالأب يفرح كثيراً بأبنائه الذين يرى فيهم الذّريَّة والعقب ، والذى يمثل عند النبى ﷺ الفرح الشديد فى حياتهم ، والحزن العميق فى فقدهم ، فهو كإنسان فى طبعه الميل والحب لأن يعقبه

---

(١) الآية من سورة الأحزاب (٤٠) .

ذُريّة وأبناء يرى فيهم النسب إليه ، واستبقاء الخلف ، ثم الافتخار بهم [١] .

لقد أَحبّ النبى ﷺ أبناءه من السيدة خديجة - رضى الله عنها - ، وكان له منها القاسم - رضى الله عنه - ، والذى كان يكنى به ، فحينما كان ينادى عليه يقولون : يا أبا القاسم ﷺ ، ولكنه تُوفى وهو صغير ، فدارى ﷺ حزنه الشديد عن السيدة خديجة - رضى الله عنها - رحمة وشفقة بها ، ولما مات ابنه عبد الله - رضى الله عنه - أخفى حزنه وألمه وراح يُواسى السيدة خديجة - رضى الله عنها - التى كانت تُحبُّ أن يكون لزوجها ﷺ منها الولد ، أيضاً فقد حزنَ كثيراً على فقدهِ البنات : زينب ، ورُقيّة ، وأُم كلثوم - رضى الله عنهن - لكنه رَضىَ بقضاءِ الله وحكمته .



ولقد تزوج النبى ﷺ بعد السيدة خديجة - رضى الله عنها - زوجات كثيرات ، فلم يعقب (ينجب) منهن ، وظلّ طويلًا ينتظر حتى جاءت مارية المصرية ، فولدت له وليداً ، فكان فرحه به عظيماً ، اختار له اسماً من أسماء جدّه الكبير إبراهيم - عليه السلام - ، وكان رجاؤه أن يكون فيه الذّريَّة والعقب كما كان لجدّه ، ولكن ذلك لم يتحقق فقد مات ابنهُ وفَلْذَة كبده ، ولم

---

(١) عبقرية محمد ﷺ ، للعقاد (٢١١) .

يكمل رضاعته ، فكان عنده من العُمْر ثمانية عشر شهراً ، ولم يتحمّل النّبأ الذى فُوجئ به ، فخرجَ الأب العَطُوف الذى ازداد حزنه يتوكأ على كتف صديق إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة فى حِجْرِه الأَبَوىّ ، وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : « يا جَبل لو كانَ بكَ مثل ما بى لهدك ، ولكن إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » .

وحين بكى الأب صرخ أُسامةُ بن زيد (رضى الله عنهما) ، فنهاه الأب المكلوم قائلًا : « البُكَاءُ مِنَ الرَّحْمَـةِ ، والصُّرَاخُ مِنَ الشَّيْطَانِ » [1] .

ودُفِنَ إبراهيم – رضى الله عنه – ، ولكن أبوة محمد ﷺ ظلت ما ظلت حياته يفيض بها على كل الناس صغيراً أو كبيراً .

لقد أطالَ سُجُوده ، وكانَ ابن ابنته قد ركب ظَهْره وهو ساجد فَصَبر عليه ، ولم يَتعجَّلهُ ، فلَمَّا سُئِلَ فى سبب الإِطَالة ؟ قال : « إِنَّ ابنى ارتحلنى فَكَرهْتُ أَن أُعجِّلهُ » [2] .

صَلَّى اللهُ عَلَيكَ يَا رَسُول الإِنسانية وَالأُبُوّة الصَّادقَة .



(١) المرجع السابق (٢١١) .
(٢) البيهقى (٢/٢٦٣) .

الزَّوجتان

الأولى : خديجة بنت خوَيلد.

الثانية : ماريَة المصريَّة.

السَّيِّدَةُ خَديجَة بنت خُوَيْلد
(رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا)

ولدت السيدة خديجة – رضى الله عنها – [illegible] (1)
فأبوها خويلد [illegible] عبد العزى ، وعبد العزى هذا أخو
[illegible] أحد أجداد النبى ﷺ ، وأبوهما قصى بن كلاب ، فهى
– رضى الله عنها – تلتقى مع النبى ﷺ فى الجدّ الرابع ، وهو
قصى بن كلاب .

وخويلد هذا قائد من قادة العرب فى الجاهلية ، فقد قاد الناس يوم
[illegible] وكان له دوره الهام فى استرداد الحجر الأسود ...
[illegible] إلى اليمن .

[illegible] أولاد فإلى جانب أشهرهم خديجة
[illegible] هالة أم أبى العاص صهر النبى
ﷺ ، ورقيقة أم أميمة بنت بجاد من بنى تميم بن مرة ، وحزام
ونوفل من سادة قريش .

[illegible] زائدة بن الأصم بن عامر بن لؤى ،
وأم فاطمة هذه هى هالة بنت عبد مناف .

فكلا أبويها من أعرق البيوت فى قريش نسباً وأعلاهم حسباً .



---

(1) قريش : قبيلة عربية عريقة سكنت مكة .

نبتت خديجة - رضى الله عنها - فى بيت واسع الثراء ، ملتزم بالأخلاق الفاضلة ، معروف بالتدين والبعد عن الانغماس فى الملذات والملاهى التى كانت بعض بيوتات قريش غارقة فيها .

★ ★ ★

سكتت المراجع فلم تذكر شيئاً مفصلًا عن طفولة السيدة خديجة - رضى الله عنها - ، والذى نستطيع أن نقوله : إنها درجت طفولتها الأُولى فى بيت كبير فيه الغنَى والنَّعيم ، وكل وسائل العيش الرَّغيد ، معروف بإطعام الطعام ، ومساعدة الفقير والمحتاج .

لقد كانت عناية الله - عَزَّ وَجَلَّ - ترعاها وتحرسها منذ طفولتها الأُولى ؛ لأنها خلقت لتكون أُمًّا للمؤمنين ، وليس كل امرأة تصلح لأن تكون أُمًّا للمؤمنين ، فعناية الله حرستها منذ أن خلقت ونشأت ، واختارها المولى سبحانه وتعالى لحكمة ولمهمة تقوم بها ، ولذلك فإن الرسول ﷺ لم يقبل وكذلك كل أُمهات المؤمنين أن يتزوج امرأة مهما كانت منزلتها إلَّا بأمرٍ وتوجيه من الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ...** ﴾ [1]، وأيضاً منع المولى سبحانه وتعالى الزواج عن النبى ﷺ حيث قال : ﴿ **لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ...** ﴾ [2].

★ ★ ★

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٥٠) .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٥٢)

كان من عادة بيوت الأشراف من قريش أن تتزوج البنات فى سِنٍّ مبكرة ، فإذا جاوزت البنت العاشرة بقليل طُلِبت للزواج ، وكان لا يجرؤ أن يطلب يد واحدة من هذه البيوت إلَّا من كان معروف الأصل شريف النسب .

فما أن أتمت خديجة - رضى الله عنها - العاشرة حتى تقدم إليها عتيق بن عابد المخزومى ، فولدت له عبد الله ، ثم مات عتيق هذا لكنها لم تستمر أَيِّماً مدة طويلة ، فقد خطبها أبو هالة واسمه هند بن زرارة بن النباش التميمى ، فولدت له ابنين ذكرين هما هند والحارث وابنة اسمها زينب .

هذه هى رواية ابن حزم رحمه الله وهو معروف بالتحرى والدقة فيما ينقل من أخبار ، وكان عبد الله بن عتيق هذا قد جاوز العاشرة حينما تزوج النبى ﷺ خديجة - رضى الله عنها - ، أما هند ومن معه من الصغار ، فقد كانوا فى دور الطفولة ، فآنسوا فى محمد ابن عبد الله ﷺ العَطْف والحنان الزائد والأُبوّة الصَّادقة ممَّا جعل (هنداً) بن هند بن زرارة يقول عند الحديث عن رسول الله ﷺ : « وأبى محمد » [1].



لقد أصبحت بعد موت زوجها الثانى أبى هالة النبّاش مسئولة وحدها عن تربية أولادها ، والعناية بهم ، والإخلاص لهم ، فَنُشئوا

---

(١) جوامع السير ، لابن حزم (ص ٣٠) طبعة باكستان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، والدكتور ناصر الدين الأسد ، ومراجعة أحمد محمد شاكر .

ووافق هذه الرواية الطبرى فى تاريخه (ج ٣ ص ١٧٥)، والسمط الثمين (ص ١٣) ، وعيون الأثر (ج ١ ص ٥١) .

تنشئة صالحة ، فقد تفرّغت لهم ، وزهدت فى الزواج ، فقد تقدم إليها سادات العرب وعُظَماؤهم فلم ترض بواحد منهم وتمنعت على الجميع ، وشغلت نفسها ، وملأت ما تبقى من فراغها بالإشراف على الاتجار فى أموالها الطائلة ، وكانت التّجارة التى تُرسلها مع القوافل التى تخرج من مكة من الوفرة بدرجة كبيرة ، وكانت تختار من قريش من يخرج مع العير ليشْرف لها من يتحلّى بالصّدق والأمانة ، وكثيراً ما كانت تستعين بابن أخيها حزام المسمّى (حكيماً) وكان ذكيًا ، وله مكانة عظيمة فى قومه ، وكانت تجارته عظيمة وقوافله تَجُوب داخل الجزيرة العربية وخارجها إلى الشام وبلاد فارس وغيرها ، وكان محبًا لعمته ، دائم التردد عليها فى بيتها ، ويشاركها الرأى والعمل ، ولا ينسى التاريخ أن حكيماً هذا هو الذى اشترى زيداً بن حارثة (رضى الله عنه) الذى أهداه السيدة خديجة — رضى الله عنها — بدورها فيما بعد إلى رسول الله ﷺ .

لقد كان لها من جديتها وشخصيتها ما يجبر من تؤجره على أن يتحلّى بالصّدق والأمانة والإخلاص .

ومع تجارتها وكثرتها وزيادة دخلها وربحها ، نراها لا تخرج للتجارة ولا تختلط بالتجار ، وتترك من تؤجره ليغنيها عن ذلك ، ثم إننا نراها لم تنصرف بكليتها إلى التجارة والربح وكأن كل هذا كان عادياً ، فلم تستول التجارة على كل تفكيرها وتشغل داخليتها ، وكأنها تسلية تسلى بها نفسها ، أما عقلها الداخلى فما نرى إلّا أنه كان يفكر فى أمر روحى خاص يهيئها الله له ، والدليل على ذلك أنها بمجرد أن رأت الإرهاص وعلامة النّبوة تظهر على زوجها

محمد بن عبد الله ﷺ تركت كل هذا ، وأخلصت لما كانت تعيش فيه من الإيمان الشديد بالله سبحانه وتعالى .



لقد كان يشغلها أمرٌ عظيم ، إنها لا تَسجُد للأصنام ، ولا تحب أن تراها وهى قائمة لا فائدة فيها ، ولطالما أشار عليها بعض المقربين من الأهل أن تضع فى قصرها تمثالًا من التماثيل ، أو صنماً من الأصنام التى يُقدِّسها أهل مكة ، فكانت تقابل ذلك بابتسامة التَّهكُّم والسُّخريّة ، فهىَ تعرف جيداً قيمة هذه الآلهة التى لا تضر ولا تنفع ، بل كثيراً ما كانت تنهى ابن أخيها حكيم بن حزام عن تقربه للأصنام ، وتطلب منه أن يكون إنفاقه وتصدقه ، وبذل المال الكثير الذى كان دائماً يعطيه للفقراء والمحتاجين تقرباً إلى ربِّ السَّماء والأرض جَلَّ شأنهُ .

إنها تستريح وتطمئن نفسها ، وتهدأ داخليتها لسماع الكتب السماوية التى يتلوها عليها ابن عمها ورقة بن نوفل من الكتب المنزلة على عيسى وموسى – عليهما السلام – ، كانت تنصت إليه أكثر وأكثر حينما يتحدَّث ورقة بن نوفل عن النبى العربى ﷺ الذى سيرسله الله لهداية الناس ، وستنتشر رسالته بعد كفاح طويل مع قومه .

كانت تتمنى أن تراه ، وأن تكون أحد أتباعه ، فَتُقدِّم إليه كل ما تملك فى سببل نصرته ، ولعلّ ذهنها الصَّافى راح يُصَوِّر لها هذا الرجل الكامل صورة ارتسم فيها إبداع الخالق .



كانت تجارة السيدة خديجة - رضى الله عنها - مباركة ، تعود عليها بالمال الكثير والخير العميم ، وكان بيت ضيافتها مفتوحَ الأبواب للمعوز وللأقارب والأهل ومن يأوى إليها من الصديقات . تُطعم الجائع ، وتكسو الفقير ، وتساعد المحتاج ، وكثيراً ما يأتى بيتها الكثيرات من بنات عُمومتها فيجالسنها ، وينلنَ من خيراتها ، ويُصاحبنها فى الذّهاب والعودة من الكعبة فيحطن بها ، وكأنها ملكة غير متوجة ، تستشار فى الملمات ، ويؤخذ برأيها فى الشدائد .

ولم يكن ذلك خافياً على أبى طالب عمّ محمد بن عبد الله ﷺ ، وكان يعرف أن ابن أخيه أصبح فى حاجة إلى عمل ، وأن فى استطاعة خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) مساعدته فى ذلك ، ورأى أن يَعرضَ الأمر على ابن أخيه .

★ ★ ★

دخلَ محمد ﷺ على عمّه أبى طالب ، وسلَّم عليه وعلى عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، وقُوبل بالبشر والتِّرحاب ... ثم التفت إليه عمه وقال : يا محمد ! أنا رجلٌ لا مال لى ، وقد اشتدّ الزّمان ، وألحت علينا سنون منكرة، وخديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) تبعث رجالًا من قومك فى عيرها ، فيتجرون لها فى مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها ، فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك ، وفَضَّلتكَ على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك وصدقك .

فقال محمد ﷺ : فلعلها ترسل إلىّ فى ذلك .

فقال له عمه : إنى أخاف أن تولى غيرك ، فتطلب مدبراً [1] .

---

(١) سبيل الهدى والرشاد (ج ٢ ص ٢١٤) .

استأذن محمد ﷺ عمه أبا طالب ، ليتوجه إلى خديجة - رضى الله عنها - ، فأَذنَ له ، وبعث بعده جارية يقال لها : نبعة ، فربما كان قلقاً يريد أن يعرف رد خديجة - رضى الله عنها - ، ولقاءها لابن أخيه !

رجعت نبعة تُخْبِرُ سيدها أبا طالب بحُسْن لقاء خديجة لمحمد ﷺ ، وترحيبها به ، فهدأت نفس أبى طالب الذى كان قلقاً على ابن أخيه ، ويريد أن يطمئن على لقاء خديجة له .



أما عاتكة بنت عبد المطلب أُخت أبى طالب ، وعمّة محمد ﷺ ، وهى التى كانت عند أخيها أبى طالب ، وسمعت ما دار بين أبى طالب ، وابن أخيها ، وبين أبى طالب وجاريته نبعة ، فأرادت أيضاً أن تعرف رأى خديجة فيما طلب محمد ﷺ منها عن قرب ، فذهبت إليها بنفسها ، وليس غريباً أن تذهب عاتكة ، فصلتها بخديجة قوية إذ هى أُخت صفية زوج العوام بن خويلد أخى خديجة ، فاتجهت إلى بيت خديجة ، وأخبرتها بما دار بين محمد ﷺ ابن أخيها وبين عمه أبى طالب ، وما أن انتهت عاتكة من حديثها حتى أبدت خديجة أسفها الشديد ، وتمنت لو عرفت ذلك منذ زمن ، ثم قالت : وما علمت - من قبل - أنه يريد هذا [1] .



---

(١) المرجع السابق (ج ٢ ص ١١٤) .

بدأت أحوال محمد ﷺ تأخذ لها مجرى عمليًا في حياة السيدة خديجة ، فربما كانت تراه أحياناً عند عمته صفية بنت أبي طالب ، وكانت تستمع إلى سيرته العَطِرَة التي يتحاكى بها الناس في مجالسهم ، فربما أخذت هذه السيرة طريقاً إلى قلب السيدة خديجة ، وإذا لم يكن من الأخبار التي تؤيد ذلك ، فإن الدلائل تدل على أن السيدة خديجة كانت تعرف من الشمائل والأخلاق والصِّفات لمحمد ﷺ ما يجعلها تفكر فيه ، بل وتتمنى أن يكون زوجاً لها ، فالمجتمع المكي لم يكن من الكثرة حتى تختفي أخبار الناس ، بل كان محدوداً ، والكل يعرف بعضهم بعضاً ، وخاصة أنهم ينتمون إلى أصل واحد ، فهم أهل قرابة ومودَّة .

أرسلت السيدة خديجة - رضى الله عنها - إلى محمد ﷺ تدعوه عندها للاتفاق على ما سيقوم به من عمل ، وعلى الأجر الذي سيأخذه ، وبدأت حديثها قائلة : « إني دعاني إلى البعث إليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك » .

وما أن خرج محمد ﷺ من بيت خديجة حتى اتجه إلى عمه ليخبره بما جرى بينه وبين السيدة خديجة ، فَسُرَّ عمه بما وصل إليه ، وشجعه قائلاً : « إن هذا رزق ساقه الله تعالى إليك » [1] .

★ ★ ★

تهيأ محمد بن عبد الله ﷺ للأمر الجديد ، إنه سيتاجر لخديجة في مالها ، ولقد اتفقا على أن يسافر لها سفرتين بقلوصين [2] ،

---

(١) المرجع السابق (ج ٢ ص ٢١٥) .
(٢) القلوص : الناقة .

وبدأ السفرة الأُولى ، وكانت إلى سوق حباشة ، واستعد العمال لحمل السلع ووضعها على ظهر الإبل ، وحسبت خديجة أن محمداً ﷺ سيجلس فى مكان يتخذه لنفسه ، ويترك العمال يقومون بالعمل والترتيب حتى ينتهوا منه .

ولكن محمداً ﷺ شارك العمال ، فأشرف على السِّلَع ، ووضعَ كلَّ سلعة فى مكانها ، ونظّم الأحمال ، فهو [illegible] رَجُلٌ [illegible] ، ويَعْطف على الإبل [illegible] وشفقة .
ثم استعد محمد ﷺ [illegible] ، ليصل إلى سوق حباشة ، وهى السوق التى كان العرب فى الجاهلية يتبايعون عليها ، ومدتها ثمانية أيام فى السنة ، ويقام السوق فى تهامة [1] .

باع محمد ﷺ ما كان معه ، واشترى ما وجد فى السوق مما يروج بيعه وشراؤه ، حتى إذا انقضت أيام السُّوق الثمانية ، رجعَ ومعهُ ميسرة خادم السيدة خديجة إلى مكة ، وقد امتلأت نفس ميسرة بالحب والإعجاب مما رأى من خُلق محمد ﷺ ، وصدقه ، والخير الذى جاء على يديه ، فأسرع عند عودته إلى سيدته ليخبرها بما رأى وسمع ، وليصف لها هذا الرجل العظيم .

يقول ابن زبالة [2] : « فلما أقبلت العير أشار لها أن تأتى إليه ،

---

(١) معجم ما استعجم ، للبكرى (ح ٢ ص ٤١٨) .

(٢) هو : محمد بن الحسن القرشى المخزومى المدنى المعروف بابن زبالة ، عدّه ابن حجر من كبار طبقة العاشرة ، تُوفى عام ٩٩ هـ ، وكتابه « المنتخب من أزواج النبى ﷺ » تحقيق الدكتور أكرم العمرى مدير الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية ، طبع الكتاب بمطبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وإذ بسحابة تُظلِّله ، وتسير معه ، فأمرت له بسقب آخر ، وتعلق قلبها به لما أراد الله بها من السعادة »[1] .



لم يكن الذهاب إلى سوق حباشة إلَّا عنواناً على مقدرته الفائقة على العمل والتجارة وعلى ذكائه ، ثم على زيادة الاطلاع على مواهب رجل لم تسمع بمثله من قبل .

لقد كلَّفتهُ بالاستعداد لرحلة جديدة ، وكانت إلى الشام ، وهذه الرّحلة يعد لها تجار مكة إعداداً كبيراً ، فيحملون معهم كل ما يدر عليهم الرّبح الكثير ، وهم يعرفون ما تحتاج إليه تلك البلاد .

كان عندما تستعد القافلة للسفر ، ويحين موعد سيرها يقبل شيوخ مكة وسراتها لتوديعها كعادتهم من قبل ، فلقد أقبل أعمام محمد بن عبد الله ﷺ وعلى رأسهم عمه الكبير أبو طالب لتشجيعه وتوصيته بما يجب اتخاذه عند البيع والشراء ، ثم راحوا يوصون به الأهل والأصدقاء ممَّن لهم تجارب سابقة فى مثل هذه الأسفار .

كان محمدٌ ﷺ بَادِيَ البِشْر ، عليه سِمَاتُ الجِدِّ ، ينظم الأمتعة ، ويضعها مرتبة ، ويطمئن على كل محتوياتها .

وصلت القافلة إلى بصرى جنوب الشام ، وبدأ التجار فى عرض ما معهم من البضائع ، وَمَرَّ محمد ﷺ فى السوق ليعرف أحوال البيع والشِّراء ، ثم بدأ فى عرض ما معه ، وظَهَرتْ مواهبه ، ومقدرته

---

(١) « منتخب أزواج النبى ﷺ » لابن زبالة (ص ٢٤) .

على البيع وعلى لقاء النـاس ، فقد اختلف معه رجل من أهل الشام فقال له : احلف باللَّات والعُزَّى !

فرد عليه محمـد ﷺ قائلًا : ما حلفت بهما قط ، وإنى لأَمُرُّ فأُعرض عنهما .

فقـال الرجل : القول قولك .



باع محمد ﷺ كل ما معه ، واشترى ما يحتاج إليه أهل مكة ، واستعد للعودة إلى مكة ، ووصل وادى مر الظهران بالقرب من مكة ، فاستأذن ميسرة من محمـد ﷺ للذهاب إلى سيدته ليخبرها عن الرِّحلَة والتِّجارة ، وعمَّا جرى من مُحَمَّد ، وعن أَخْلَاقه وصِفَاته ومُعاملاته .

وأصبحت القافلة على أبواب مكة، وخرج الناس لاستقبالها ، وصَعَدت النساء إلى أسطح المنازل ، ليروا الأهل والأقارب ، وصعدت خديجة مثلهم إلى غرفة عالية فى بيتها بالبطحاء فرأت محمـداً وهـو على ظهر قَعُود أحمر فزاد من إعجابها ، وعظمت منزلته فى قلبها .

لقد شغلت به ، وبما سمعت من ميسرة ، وما وصل إليها من الأقارب ممَّن كانوا فى الرحلة ، فتمنَّت أن تدوم صلتها به ، وأن ترقبه عن كثب ، فموسم التجارة ليس كافياً لتوثيق هـذه الصِّلَة ، إنهـا تريد صلة أقوى لتشترك معه ، ففكَّرتْ فى رباط أقوى ، وحياة أعْمَق وأشْمَل ، وأن كل هـذا لا يكون إلَّا بأن يُصبح محمد ﷺ

معها دائماً ، ولن يكون ذلك إلَّا بالزواج ، فهل سيقف معها القدر في تحقق لها ما تصبو إليه ؟!!.

[illegible] سوف يكشف عنه المستقبل القريب .



مضى محمد ﷺ مع شبابه ورجولته ، وعَيْنُ الله ترعاه ، عف النظر ، حافظاً لسانه من العثرات ، لا يتكلم إلَّا حيث يُطْلَبُ منه الكلام ، فإذا تكلَّم كان من الجدية بحيث لا يترك لإنسان مجالاً لما تحدثه نفسه به من أهواء وأغراض ، لذلك فقد كان أمر الزواج من محمد ﷺ يمر على النساء وكأنه أمر بعيد مستعص ، لأن المرأة غالباً لا تعرض نفسها على رجل إلَّا إذا وجدت منه رغبة ، أو وجدت في عينيه ما يدفعها إلى المغامرة بالعَرْضِ ، ومحمد ﷺ بعيد عما يدعو لمثل هذه الأهواء والعروض .

وعمل محمد ﷺ لخديجة ورأت من أخلاقه وجديته وعمله ما أثلج صدرها ، وملأ عليها تفكيرها ، وجعلها تعيش مع أمل تمنت لو تحقق ، إنها تناقشه أحياناً في العمل ، وترى الأدب الجمّ في نظراته وكلامه وتعبيراته ، فلم يترك لها مجالاً لتعرض نفسها عليه لتتزوج به ، وليس في العَرْضِ عليه غرابة ، فعرض المرأة على الرجل ليتزوجها أمر ليس بمستنكر ، ولكنه الخوف من الصَّدمة التي قد لا تتحملها إن كان الجواب بالرَّفْض ، فالحياة مع الأمل غالباً أخفّ على النفس من الحقيقة المُرَّة ، والصَّبر حتى تنجلي الأُمور أَهْوَن من التَّسرع في أمر ليس فيه بينة ووضوح .



لقد تحكمت السيدة خديجة – رضى الله عنها – في نفسها ، ووقفت صامدة لترد كل من يتقدم إليها يريد الزواج منها من سادة قريش وأغنيائها ومترفيها ، وأوصدت الباب فى وجوههم ، ولم تدع مجالاً للمناقشة أو المزايدة ، واقتنع الجميع بما قالت ، وزاد من احترامها وإكبارها فى نظر أبناء عمومتها .

ولكن ما بالها اليوم يستولى على قلبها محمد ﷺ ، لاشك فى أنه صنف آخر من غير هؤلاء الخَلْقِ جميعاً فى خَلْقِه وخُلُقِه ، وكانت على حق فيما فكرت وقدَّرت .

شعرت المقرَّبات من السيدة خديجة برغبتها فى الزواج من محمد ﷺ ، وعزّ على أختها هالة أن ترى أُختها اتجهت نفسها إلى الرغبة فى ذلك الزوج ، فلتتصل هى بمحمد ، ولتنقل إليه هذه الرغبة ، وفى اعتقادها أن محمداً ﷺ سيسرع إلى أُختها بمجرد أن تفاتحه .

رأته ﷺ وهو يسير مع صاحبه عَمَّار بن ياسر ، فأسرعت خلفهما ، ولكن هيبة محمد ﷺ منعتها أن تحدثه ، فنادت عَمَّاراً ، فأقبل عليها ، فقالت له : قل لمحمد صاحبك : أما لك من حاجة فى التزوج من خديجة ؟

ثم انصرفت مقدرة أن محمداً ﷺ بمجرد أن يعرض عليه عَمَّار فكرة الزَّواج أن يُسْرع إلى أُختها ، ولكن محمداً ﷺ قال لعَمَّار : بلى لَعَمْرِى !

لكنه لم يذهب إلى خديجة ، ولم يوله اهتماماً كبيراً ؛ لأن هالة ليست صاحبة الشأن ، ومضت حياته عادية .

أما خديجة فقد لامت أُختها على هذه الطريقة : أفى الطريق ؟

ومحادثة غير صاحب الأمر ؟ وتوصيل الأمر إليه بطريقة غير مرضية ؟ وهل مثل محمد ﷺ يخاطب بهذا الأسلوب ؟

سكتت هالة ، ولم ترد على أُختها ، ولكن نفيسة بنت منبه صديقة السيدة خديجة المخلصة المقرّبة إليها ، قَطَعتْ عليهما أُسلوب اللّوم والعتاب ، واستعدت لمقابلة محمد ﷺ ، وكانت حكيمة فيما أَقْدَمتْ عليه .

كان محمد ﷺ يسير ... متجهاً إلى الكعبة ، نادته نفيسة ، فأقبل عليها فسألته : يا محمد ! ما يمنعك من الزواج ؟

من هذا السؤال ستعرف هل هو مرتبط بالزواج من إحدى قريباته ، أو أنه عازف عنه ، فإذا ما ذكر سبباً معقولاً فلا داعى لتقديم باقى أسئلتها .

ولكن محمداً ﷺ أجابها قائلًا : ما بيدى ما أتزوج به !

لقد عرفت نفيسة السبب الذى جعل محمداً ﷺ لا يُقبل على الزواج ، لذلك فقد أسرعت إلى الإجابة التى تحسم الأمر وتزيده وضوحاً لتصل إلى النتيجة التى تطلبها ، فقالت : إن كفيت ذلك ، ودعيت إلى المال والجمال ، والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟

فرد محمد ﷺ قائلًا : فمن هى ؟

وهذا يدل على أن أمر زوجة بعينها ليس له مكان فى قلبه الكبير ، وليس على باله وخاطره موضوع محدد يسعى إليه ، لذلك فقد كانت إجابته : فمن هى ؟

قالت نفيسة : خديجة !

فقال محمد الأمين الصادق ﷺ : وكيف لى بذلك ؟

فقالت نفيسة : أنا أكفيك الأمر ما دمت قد رضيت ووافقت .

★ ★ ★

وكانت المفاجأة ، فقد أقبلت نفيسة مُتهلّلة الوجه ، باديةَ البِشْر ، تهنئ عزيزتها ، فلقد وفِّقَتْ فى مهمتها ، وحملت إليها موافقة محمد ﷺ .

فرحت خديجة (رضى الله عنها) بما أقدمت عليه نفيسة ، وأرسلت إليه مولاتها تلتمس أن يوافى سيدتها الساعة .

ذهب محمد ﷺ إلى دار خديجة (رضى الله عنها) ، وهى لا تصدق ما يجرى ، فلقد قابلته بكل ترحاب وسرور ، وأعادت عليه أمر الزواج لتعرف رأيه بنفسها ، ولتستمع إلى الكلمات العذبة التى تخرج من فم أكرم الناس عليها .

قالت : يا محمد ! ألا تتزوج ؟

رد عليها الصادق الأمين ﷺ : مَنْ ؟

قالت : أنا .

قال ﷺ : مَنْ لى بك ؟

قالت : « يا ابن عم إنى رغبت فيكَ لقرابتك ، وسطتك فى قومك ، وأمانتك ، وحُسْن خُلُقك ، وصدق حديثك » .

قَبِل محمد الخطبة .

ثم قالت الطاهرة : اذهب إلى عمّك فقل لهُ : عَجِّل إلينا بالغداة !

★ ★ ★

جاء أبو طالب إلى بيت خديجة ، فرحبت به ، ثم قالت : اذهب إلى [illegible] ، فقل له : [illegible] من ابن أخيك ، فوافق أبو طالب على [illegible] الزواج ، [illegible] أن [illegible] بالخطوبة وقال : هذا من صُنْع الله !!

جاء محمد ﷺ وأعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، والزبير ، والغيداق وصديقاه أبو بكر وعمَّار بن ياسر ، ودخلوا على عمها عمرو بن أسد ، وكان معه ابن عمها ورقة بن نوفل وابن أخيها حكيم بن حزام ، وجَمْعٌ من رؤساء مُضَر ، وكُبَراء مكة وأشرافها لإتمام العقد ، فتكلَّم أبو طالب فألقى خُطبة جامعة ، ثم تكلم ورقة ابن نوفل [illegible] وقام عمها عمرو فقال : اشهدوا عليّ معاشر قريش أنى قد [illegible] بن عبد الله .. وشهد على ذلك صناديد قريش .

[illegible] ﷺ [illegible] وأطعم الناس ، وضربت الجوارى [illegible] أبو طالب فرحاً شديداً ، وقال : « الحمد لله الذى [illegible] الكروب ، ودفع عنا الهموم » .

وكان [illegible] عشرين بكرة [illegible] : اثنتا عشرة أوقية [illegible] ونصف أوقية .

☆ ☆ ☆

كان سيدنا محمد ﷺ فى سِنِّ الخامسة والعشرين ، أما السيدة خديجة – رضى الله عنها – فكانت تكبره ببضع سنين إن لم تكن هى فى سن الخامسة والعشرين كما رواها بعض المؤرخين ، وليست فى سِنِّ الأربعين كما يروى لنا معظم الرواة ، ولعل الذى دفعهم إلى الأخذ بهذا الرأى ما كانت تمتاز به من رجاحة العقل ، وسديد

الرأى ، واستقامة الفكر الذى لا يعطاه إلّا الذين تقدمت بهم السنون . فحسبوا أن كل ذلك لا يكون إلّا لمن فى سن الأربعين ، بل إن بعضهم قال : إنها كانت فى سنّ الخامسة والأربعين غير مقدرين لما يترتب على هذا التقدير من أشياء تخالف ما عليه ناموس الحياة ، فقد ولدت ابنها عبد الله الطاهر بعد أكثر من خمس عشرة سنة ، أى أنها كانت فى سِنّ السابعة والخمسين تقريباً ، وهذا بعيد جدًّا فسن اليأس الذى لا تلد فيه المرأة يبدأ من بلوغ الخامسة والأربعين إلى سِنّ الخمسين ، فقد نقل السهيلى فى (الووض الأنف) من رواية الزبير بن العوام بن خويلد قوله : « ولدت خديجة – رضى الله عنها – له القاسم وعبد الله وهو الطاهر الطيب سمى بالطاهر والطيب ؛ لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمى به أولًا : عبد الله » .

وسِنُّ النبوة كان فى الأربعين للرسول ﷺ ، فتكون خديجة – رضى الله عنها – قد أربت (زادت) على الخامسة والخمسين .

وروى أيضاً أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة – رضى الله عنها – بعد بعثته ، وهى تبكى فقالت : يا رسول الله دَرَّتْ لُبَيْنَة القاسم[1] فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعته ، فقال لها الأب والرسول ﷺ : « إنَّ لهُ مُرضعاً فى الجَنَّة تَستكمل رضَاعَته »[2] ، قالت : لو أعلم ذلك لهون علىّ ، فقال ﷺ : « إن شئت أَسْمَعتك صَوتهُ فى الجَنَّة » ، فأجابت : « بل أصدق الله ورسوله ﷺ »[3] .

---

(١) لُبينة : تصغير لبنة ، تعنى بها بقايا اللبن فى الثدى. (٢) أحمد (٤/٢٠٠ ، ٢٠٤) .

(٢) تعرضنا لهذا الموضوع بالتفصيل والرد فى كتابنا « خديجة بنت خويلد المثل الأعلى لنساء العالمين » والذى قامت بنشره دار الفضيلة .

ولنا أن نستأنس برأى ابن عباس – رضى الله عنهما – وهو صاحب الرأى القائل : بأن عمر السيدة خديجة – رضى الله عنها – لم يتجاوز الثامنة والعشرين وهو أعرف الناس بحقيقة عمر السيدة خديجة – رضى الله عنها – .

وأيضاً فإن ابنها هند بن هند بن زرارة كان طفلًا صغيراً ، لم يتجاوز السادسة حينما تزوجت السيدة خديجة محمداً وكان يقول : « أبى محمد » ، ولا يتأتى لها سِنُّ الأربعين إلَّا إذا قلنا : إنها تزوجت زوجها الأول وهى فى الخامسة والعشرين أو قريباً منها ، وتزوجت زوجها الثانى وهى فى حدود الثلاثين ، وهذا ما لم يجرؤ أن يقول به أحد ، فتأخير الزواج إلى هذا السن أمر مستبعد .

وقد مال إلى هذا الرأى جَمْعٌ من المؤرخين المحدثين .



تزوج محمد بن عبد الله ﷺ خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) ، ثم انتقل إلى بيت الزوجة ، وقد ملأ عليها الحياة ، وأَحست بالسَّعادة تملأ جوانب البيت ، ووجدت نفسها أمام شخصية فَذّة محت ما علق بذهنها من خيال وتفكير، إن ذكرت الأخلاق وما يتحلى به الرجال من صفات فهو الكمال الإنسانى ، وإن ذكرت الرجولة والحكمة ، فليس فى الوجود من هو أملك لها من محمد ﷺ .

لقد وجدت فيه من آيات الرجال ما لم تره فيمن عرفت ، بل لم تسمع أبداً بمثله : حقيقة إنه أُمَّة وحده .

لقد بدأ يتجسد فى إحساسها وشعورها إيمان قاطع بأن زوجها

هو نبىّ هذه الأُمَّة ﷺ الذى سَمعَتْ بأوصافه من ابن عمها ورقة ابن نوفل ، ولكن متى سيكون ذلك ؟ وكيف يكمل الاتصال بينه وبين ربه ؟ وما هـو الأمر غير العادى الذى سيكون على يديه ؟ إنها لا تدرى عن ذلك شيئاً !!

لقد جعلت له جناحاً خاصًّا فى البيت لتأملاته ولعبادته ، كان لا يقترب أحد منه فى أثناء خلوته ، وإن اقتربَ فليلتزم بالسَّكينة والهُدُوء ، فالبيت الذى كانت الحركة فيه لا تنقطع ليلًا ونهاراً قد سكن وهدأ من أجل الزّوج الحبيب .

وليس معنى هذا أنه ركن إلى الراحة والنعيم ... كلَّا ... لكنه كان يخرج إلى الأسواق يتجر ويبيع ويشترى ، ثم يرجع بما ربح إلى البيت ، وكثيراً ما كان يُشارك السَّائب بن أبى السائب صيفى ابن عبد الله بن عمر بن عابد فى التجارة .

★ ★ ★

اهتمت السيدة خديجة - رضى الله عنها - بالطعام الذى يأكله محمد ﷺ وبشَرابه ومَلْبسه ، فقد عَرَفَتْ ما يُحب وما لا يُحب ، فكانت تَعُدّ له الطعام الذى يُحبّه ويستطيبه من الطيب الحلال ، وكانت تقلل فى طعامه من البصل والثوم وغيرهما ممَّا يعافه .

ولقد كان محمد ﷺ ممَّن يعنى بنظافة ثيابه وتطييبه ، فهو يحب أن يظهر أمام الناس نظيف الثياب حسن الهيئة طيب الرائحة ، فحققت له كل ما أراده وأشار به .



ثم تفرَّغ محمد ﷺ للعبادة ، وكان يذهب إلى غار (حِرَاء) الليالى ذوات العدد ، فكانت السيدة خديجة (رضى الله عنها) تعد له ما يحتاج إليه من المأكل والمشرب ، وكانت ترسل فى أثره من يخبرها بأحواله من بعيد دون أن يشعر به زوجها محمد ﷺ ، كانت ترى ما يعانيه زوجها الحبيب ، وتشعر أن أمراً هامًّا سيحدث ؛ فهى ترقبه عن قرب ، ويشغل بالها حينما يذهب إلى الغار ، حتى جاء أمر الله ، ونزل عليه جبريل – عليه السلام – وجاء محمد ﷺ من الغار يرتعش ويقول : « زمِّلونى ... زمِّلونى ... دثرونى ... دثرونى » ، فقالت – رضى الله عنها – كلمتها الخالدة : « كلَّا ... والله لا يُخزيكَ الله أبداً ، إنَّكَ لتصِلُ الرَّحم ، وتصدق الحديث ، وتقرى الضَّيف ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدُوم ، وتُعين على نَوائب الدَّهر »[1] ، ثم تكمِّل حديثها قائلة : « أَبْشر يا ابن العَمّ ، واثبت ، فوالذى نَفْس خديجة بيده إنِّى لأَرجو أَن تكونَ نَبيّ هذه الأُمَّة » .



رأت خديجة (رضى الله عنها) أن محمداً ﷺ فى حاجة إلى النوم ، وأَنَّ النوم سيهدئ من رَوْعه ، فيخفِّف عنه ما نزلَ به من جراء ما رأى وعَلِم ، ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقد امتلأ قلبها بالفَرَح والسُّرور ، فقد صدق ما كانت تشعر به فى داخليتها .

أخبرت ابن عمها بما قاله رسول الله ﷺ ، وبما رأى وسمع .

قال ورقة بن نوفل : قدُّوس قدُّوس والذى نفس ورقة بيده لئن

---

(١) البخارى (٣/١) ، (٢٠٢/٦) .

كنت صَدَقْتنى يا خديجة ، لقد جاء الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى – عليه السلام – ، وإنه لنبىّ هذه الأُمَّة ، قولى له : فليثبت .

رجعت خديجة – رضى الله عنها – إلى زوجها ، فأخبرته بقول ورقة بن نوفل .

★ ★ ★

كانت خديجة (رضى الله عنها) واثقة كل الثقة من نبوة زوجها ﷺ ، وكان لا ينتابها شك بعد أن عاشرته ، وعرفت عنه الكثير ، إلَّا أنه أحياناً كان يقول لها : « أخشى أن يكون ما بى شىء آخر ، وأن الذى يأتينى هو ممَّن يتعوذ بهم الكهان »[1] .

لقد شغله هذا الأمر وأهمّه ، فأرادت السيدة خديجة – رضى الله عنها – أن تمحوَ من تفكيره ما يمرّ بخاطره ، وأن تبعد عنه هذه الأوهام ، وأن تؤكد له أن الذى يأتيه ما هو إلَّا مَلَكٌ كريم من عند الله سبحانه وتعالى .

قالت خديجة (رضى الله عنها) : أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك ؟

قال ﷺ : نعم .

قالت (رضى الله عنها) : إذا جاء فأخبرنى به .

وجاء جبريل – عليه السلام – ، فقال رسول الله ﷺ لخديجة – رضى الله عنها – : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٥٣/١) بمعناه .

قالت (رضى الله عنه) : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى ، فقام وجلس عليها ، وقالت : هل تراه ؟

قال ﷺ : نعم .

قالت (رضى الله عنها) : فتحول فاجلس على فخذى اليمنى ، فتحول ﷺ فجلس على فخذها اليمنى ؟

قالت (رضى الله عنها) : هل تراه ؟

قال ﷺ : نعم .

قالت (رضى الله عنها) : فتحول فاجلس فى حجرى ، فتحول ﷺ فجلس فى حجرها .

قالت (رضى الله عنها) : هل تراه ؟

قال ﷺ : نعم .

فتحسرت ، وألقت خمارها ، قالت (رضى الله عنها) : هل تراه ؟

قال ﷺ : لا ، ولقد قالوا : إن المَلَك يختفى إذا كشفت المرأة رأسها بخلاف الشيطان فإنه يبقى فى مكانه ، ولما كانت خديجة - رضى الله عنها - تعرف ذلك فقد قالت فى فرح وسرور : يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله إنه لملك ، وما هو بشيطان .

★ ★ ★

وعندما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بتبليغ الرّسالة بقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [1] .

كانت خديجة - رضى الله عنها - أول من آمنت به ﷺ ، وصدَّقت بكل ما جاء به من الله سبحانه وتعالى ، وآزرتهُ على

---

(١) سورة الشعراء ، الآية (٢١٤) .

أمره ، فخففت عنه ما كان يلقاه من أهل مكة من إيذاء وتعذيب ، فهى بجانبه تراجعه وتثبته وتصدقه وتهوّن عليه أمر الناس .

وبالغت قريش فى عدائها للنبىّ ﷺ ومن معه ممَّن أسلموا ، فكانت المقاطعة المعروفة ، فقد كتبت قريش الصَّحيفة وعلقوها على الكعبة .

تعاقدوا فيها على بنى هاشم فأخرجوهم من مكة إلى شِعْب بنى هاشم ، واتفقوا على أن لا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، ولا يقبلوا منهم صُلْحاً ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ إليهم .

أقاموا على ذلك ثلاث سنوات ، وكانت السيدة خديجة - رضى الله عنها - من الأوائل الذين دخلوا الشِّعْب مع زوجها ﷺ تشاركه الشِّدة والمحنة ، وتتحمَّل معهُ آلام الحياة وشظف العيش .

ولكن أهل السيدة خديجة (رضى الله عنها) الذين لم يؤمنوا فى وقتها هذا لم يتركوها ، فقد لقى أبو جهل حكيم بن حزام ابن أخ السيدة خديجة ، وكانَ معهُ غلام يحمل قَمْحاً يُريد عمته فتعلَّق به أبو جهل ، ونادى بصوت عالٍ : أتذهَبْ بالطَّعام إلى بنى هاشم ؟ لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك فى مكة .

ولكن صديق حكيم أبا البخترى ، أجاب عنه ، مخاطباً أبا جهل : طعام كان لعمته خديجة عنده ، أفتمنعه من أن يأتيها بطعامها ؟ أخلى سبيل حكيم .

ثم تضاربا ، فأخذ أبو البخترى لحى بعير ، فضرب به أبا جهل ضرباً شديداً .

وتغمر القوم بركة السيدة خديجة - رضى الله عنها - ، ثم مَزَّقُوا الصَّحيفة ، ورجعَ المسلمون إلى مكة بعد ثلاث سنوات أجهدت فيها السيدة الغنية المرفهة ، رجعت إلى بيتها إلَّا أنَّ المرض الذى أصابها ، والحرمان قد أثرا عليها فخفّ نشاطها المعهُود ، واستسلَمَتْ للمرض ، فأخذَ منها مأخذهُ ، وإنها لتفتح عينيها فتجد الزوج الوفى ﷺ يحوطها بعطْفه وحَنَانه ، ولا يملك لها إلَّا الدُّعاء الذى يرجو من الله - عَزَّ وَجَلَّ - قبوله .

واشتدّ المرض ، وقاربَتْ على ترك الحياة الدنيا ، وحضر الخاصّة من الأهل والأقارب يهوِّنُونَ عليها ما هى فيه ، واقترب الزوج المحزون وهى تُودِّع الحياة فقال - صَلَوات الله وَسَلَامه عَلَيهِ - : « يَا لكُرْه ما أَرى منك يا خديجة ، وقد يَجعَل الله لى فى الكُرْه خيراً كثيراً »[1] .

ثم أسلمت الرُّوح وهى بين يدى رسول الله ﷺ .



سرى الخبر فى أرجاء مكة يحمل نبأ وفاة أعظم امرأة عرفها التاريخ ، ووقع الخبر على أهل مكة كالصاعقة ، لقد ماتت خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - ، وتقبل الناس هذا الخبر بالحزن الأليم ، والذكرى الحسنة فهى نمط لا يتكرر ، لقد مرّت على الحياة كالنَّسيم العليل ، لم تُسئ إلى إنسان و لم تخرج من فَمِهَا كلمة تَخْدش السَّمع ، ولم تخرج عن طورها برغم ما كان يلاقيه أحب الناس إليها فى دعوته ﷺ إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وكانت تكتفى

---

(١) إتحاف الورى بأخبار أم القرى (ج ١ ص ٢٠٤) .

بشد أزره ، وتقويته على أداء رسالته ، وتصبره على ما يُعانيه من القوم ، وتوقن إيقاناً حازماً بوقوف المولى سبحانه وتعالى معه .

لم يوجد فى مكة من يقول : إن عليها إساءة ، وإنما يقولون : إن لها كل خُلُق جميل ، وطَبْع سليم ، وعقل راجح ، ونفس عَطُوف ، وقلب كبير ، ولن يجود الزّمن بمثل خديجة - رضى الله عنها - .

موقف مُهيب تَجَمَّع له كل من فى مكة وزُوَّارها والقبائل المحيطة بمكة ، فالكل يعرف ما قامت به فى حياتها ، لقد اتجهوا جميعاً إلى بيت خديجة - رضى الله عنها - رجالًا ونساء ليودعوها إلى مثواها الأخير .

دُفِنَتْ السيدة خديجة - رضى الله عنها - بالحجون بأعلى مكة ، نزل النّبىّ ﷺ حفرتها ووسدها بنفسه ودعا لها كثيراً ، وكان ذلك قبل هجرة النبى ﷺ بثلاث سنوات .

ولقد بَشَّرها النّبىّ - عليه الصلاة والسلام - بأَنَّ لها بيتاً فى الجنة من لؤلؤ يسوده الهدوء وراحة البال والسعادة ، فلقد قامت بدورها العظيم فى سبيل الدعوة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - رحمها الله ورضى عنها .



السَّيِّدَةُ مَارِيَةُ المِصْرِيَّة
(رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا)

والتى اشتهرت باسم (مارية القبطية) ، وقد كانت على ميعاد فى أواخر السنة السادسة من تاريخ الدعوة إلى الإسلام ، والموافق سنة ٦٢٧ من الميلاد ، فلم تأت هذه السَّنة حتى كانت بشائر النصر قاربت أن تَعُمّ الجزيرة العربية ، فالمشركون قد تقلمت أظفارهم ، وما عادت لهم قوة حقيقية يستمدون منها الوقوف فى وجه الدعوة .

أما اليهود فى المدينة وأطرافها فلم تنفع معهم معاهدة أو اتفاق أو تحالف ولم يكن هناك بد من القتال والانتصار عليهم ، وطرد الباقى منهم بعيداً عن المدينة .

أراد النبى ﷺ أن يُكَمِّل الرِّسالة ، وأن يخرج بها عن حدود الجزيرة ، وأن ينشرها عالميًا ، كما أمره المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ... ﴾ (١) .

فقد خرج النَّبىّ – عليه الصلاة والسلام – يوماً إلى أصحابه – رضى الله عنهم – فقال : « أَيُّهَا النَّاس ، إن الله – سُبْحَانهُ وتَعالَى – قد بعثَنى رَحْمَة ، فلا تَختلفُوا علىّ ، وإنى مُرسل إلى (هِرَقْل) ، و(كسْرَى) ، و(النَّجَاشِى) ، و(المُقَوقس) وغيرهم من ملوك الأُمم ورؤساء القبائل أدعُوهم إلى الدُّخُول فى الإسلام » .

---

(١) سورة سبأ ، الآية (٢٨) .

فأجابه أصحابه – رضى الله عنهم – بأنهم سَامِعُونَ لما يقول ، مُطيعُونَ لما يأمر .

فصنع له رجل صائغ خاتماً من فضة منقوشاً عليه هذه الكلمات الثلاث (محمد رسول الله) .

وأملى – عليه الصلاة والسلام – رسائله على بعض الكُتَّاب من المسلمين وختمها : والرؤساء والملوك والأُمراء هم :

١ – هرقل (إمبراطور الروم) ، أرسل إليه دحية الكلبى (رضى الله عنه) .

٢ – كسرى (ملك الفرس) ، أرسل إليه عبد الله بن حذافة (رضى الله عنه) .

٣ – النجاشى (ملك الحبشة) ، أرسل إليه عمرو بن أُمية الضمرى (رضى الله عنه) .

٤ – الحارث الحِمْيَرى ، أرسل إليه المهاجر بن أُمية الضمرى (رضى الله عنه) .

٥ – الحارث الغسانى ، أرسل إليه شجاع بن وهب (رضى الله عنه) .

٦ – أمير عمان ، أرسل إليه عمرو بن العاص السهمى (رضى الله عنه) .

٧ – أمير البحرين ، أرسل إليه العلاء بن الحضرمى (رضى الله عنه) .

٨ – وأمير اليمامة ، أرسل إليه سَلِيط بن عمرو (رضى الله عنه) .

٩ - المقوقس عظيم القبط بمصر ، أرسل إليه حاطب بن أبي بلتعة اللخمى (رضى الله عنه) .

وقد اختلفت إجابات الملوك والأمراء والرؤساء ، والذى يَهُمّنَا من هؤلاءِ هو موقف المقوقس عظيم القبط بمصر ، وكانت الرّسالة التى قدمها إليه حاطب هى الآتية :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« من محمد رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط .. سلام على من اتَّبع الهُدَى .

أما بعد ، فإنِّى أدعُوك إلى الإسلام أَسْلِمْ تَسْلَم يُؤْتكَ الله أَجرك مرتين ، فإنْ تولّيت فإنَّمَا عَليكَ إثم القبط ﴿ ... **يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾[1] .

★ ★ ★

وصل حاطب (رضى الله عنه) بالكتاب إلى مصر ، وكان المقوقس بالإسكندرية فوصل إليها حاطب (رضى الله عنه) ، ثم قدم الكتاب إليه .

يقول حاطب (رضى الله عنه) : فأنزلنى منزلًا كريماً عنده عدة ليال ، ثم بعث إليّ وقد جمع (بطارقته) فقال : يا هذا إنى سائلك بكلام ، أحب أن تفهمه عنى .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٦٤) .

قال حاطب (رضى الله عنه) : هلُمّ .

قال المقوقس : أخبرنى عن صاحبك ، أَليسَ هُوَ نَبيًّا ؟

قلت : بلى ، هو رسول الله ﷺ !

قال : فما باله حيث كان هكذا لم يَدْعُ على قومه حين أخرجوه من بلده إلى غيره ؟

فقلت له : فعيسى ابن مريم ، ماله حيث أخذه اليهود فأرادوا صلبه ، ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله ؟

قال : أحسنت إنك حكيم جاء من عند حكيم .

★ ★ ★

أعاد المقوقس قراءة الكتاب ، ووضعه فى صندوق من العاج ، ثم قال لحاطب : قد عَلِمْتُ أن نبيًّا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام وأرَاه قد خرج من أرض العرب ، ولولا ملك الروم لأسلمت .

ثم دعا بكاتب ، فأملى عليه رده ، وقد جاء فيه :

(أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وأكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم ، وبثياب ومطايا) .

والتفت إلى حاطب بن أبى بلتعة (رضى الله عنه) ، هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد ، وأرسل من يُبْلِغْك مَأْمَنَكَ ، وسَلَّمَهُ الرَّد قائلًا : إنه لم يُسْلم خشية أن يسلبه الروم ملك مصر ، وأنه لولا ذلك لآمن ، ولكان من حظه الهدى .



وكان من الهدايا ما يلى :

١ - جارية جميلة تدعى (مارية بنت شمعون) .

٢ – جارية ثانية تدعى (سيرين) هى أُخت مارية .

٣ – خادم أسود مأبور .

٤ – بغلة شهباء ، سماها النّبىّ ﷺ (دلدل) ، وكانت فريدة ببياضها بين البغال التى رأتها بلاد العرب .

٥ – حصان مسرَّج ملجم ، أطلق عليه النّبىّ ﷺ (ميمون) .

٦ – حمار أشهب ، سماه النّبىّ ﷺ (عفيراً) .

٧ – طبيب وقد رده النّبىّ ﷺ قائلًا : « لا حاجة لنا فيك ، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

وأشياء أُخرى منها عسل من (بنها) ، وأثواب من منسوجات مصر ، وبعض من العود والنَّدِّ والمسك ...

★ ★ ★

بلغ حاطب (رضى الله عنه) ومن معه وما معه المدينة فى أوائل السنة السابعة من الهجرة ، وقد عاد النبى ﷺ من (الحُدَيْبِيَّة) بعد أن عقد الهدنة مع قريش ، وسلَّمه حاطب (رضى الله عنه) رد المقوقس وقدم إليه الهدايا .

والذى يهمنا من تلك الهدايا هى السيدة مارية المصرية ، والتى يُلَقِّبُها المُؤَرِّخُون بـ (القِبْطِيَّة) باعتبارها الدِّيانة التى آمنت بها قبل أن تدخل الإسلام ، أما نحن فإننا ننسبها إلى البلد الذى كانت تقيم به ، فهى تنتمى إلى أُسرة عريقة من صعيد مصر فهي من أهل حَفْن من كورة أنصنا [1] من صعيد مصر .

---

(١) راجع إن شئت الخطط للمقريزى (ج ١ ص ٣٧٢) .

والد مارية يُسمى شمعون وهو مصرى قبطى ، أما أمّها فروميَّة .

عاشت مارية بقريتها طفولتها ، ثم انتقلت مع أُختها (سيرين) إلى قصر المقوقس ، ولا ندرى ما السبب الذى من أجله وافقت على أن تبتعد عن بلدها ، والمصريون لا يحبون ترك بلادهم ، فهم كالنِّيل يفضلون الاستقرار إلّا إذا كان هناك سبب قوى يدعُوهُم إلى ترك البلاد !

فهل كانت مارية من الذين قرأوا الكتب التى أُنزلت قبل القرآن وجاء فيها ذكر النبى محمد ﷺ ، كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ... ﴾[1] .

أم أنها قرأت قصة السيدة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم وأُم سيدنا إسماعيل - عليهما السلام - فأحبت أن تكون مثلها ؟

احتمالات والله أعلم بما قضى وأمر .



رأى رسول الله ﷺ مارية فأُعجب بها ، فاصطفاها لنفسه ، وكانت بيضاء جميلة جعدة الشعر ، ولم يشأ أن يُسكنها الحجرات فأنزلها ضاحية من ضواحى المدينة تسمى (العالية) ، وكانت ذات أشجار ونخيل ، ولعلّ الرسول ﷺ أراد أن يجعلها فى مكان مخضر مثل ما تمتاز به بلدها .

---

(١) سورة الصف ، الآية (٦) .

كان كثير التردد عليها ، وكان أحياناً يطيل المكث عندها ، وهذا ما أثار القلق عند بعض نسائه ، ولكن شغلهن عن التمادى فى الغيرة أنها ليست عربية ، فلا خطر عليهن منها .

ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد رآها مرة عند الحجرات وهناك حجرة خالية ، غابت عنها صاحبتها ، هذه الصاحبة هى زوجته السيدة حفصة بنت عمر - رضى الله عنهما - ، فدخل بها الحجرة وأسدل الستار ، وجاءت صاحبتها فوجدت الستار مسدولًا ، وقيل لها : إن رسول الله ﷺ بداخلها ومعه زوجته مارية - رضى الله عنها - ، فراحت تنتظر خروجه ، وقد غاب طويلًا ، فلما أزيح الستار وخرج والتقى بالسيدة حفصة (رضى الله عنها) قالت له : أفى يومى ، وعلى فراشى يا رسول الله ، فأراد رسول الله ﷺ أن يُطيِّب خاطرها ، فقال للسيدة حفصة : إن مارية علىّ حرام أن أمسها وطلب منها ألّا تخبر أحداً بذلك ، وأن تجعل هذا الأمر سرًّا .

كانت حفصة (رضى الله عنها) تعلم ما تكنه عائشة - رضى الله عنها - لمارية (رضى الله عنها) من الغيرة ، فأسرعت إليها قائلة : ألا أُبَشِّرك يا عائشة !

قالت عائشة (رضى الله عنها) : بماذا ؟

قالت : وجدت مارية مع رسول الله ﷺ فى بيتى ، فلما تكلمت معه فى ذلك قال لى : إنها علىّ حرام أن أمسها ، واكتمى هذا فلا تخبرى به أحداً .

وبهذا تكون حفصة (رضى الله عنها) قد أفشت السر ، فأنزل الله سبحانه وتعالى يعتب على نبيه ﷺ فى تحريم ما أحله الله - عَزَّ وَجَلَّ - :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١).



رأى رسول الله ﷺ فيها ما لم يَرَهُ فِي غَيْرِهَا ، وهَذَ هُوَ الشَّأْنُ فِي المَرْأَةِ المصرية ، فهى فريدة فى معاملتها ، فنالت حظوة كبيرة ، فضرب عليها ﷺ الحجاب ، وكثر تردده عليها ، وأسكنها بعيداً عن الحُجُرَاتِ ، فاختار لها ضاحية من ضواحى المدينة تُسَمَّى (العالية) .

كانت مَارية (رضى الله عنها) تَعْرِفُ جَيِّداً أَنَّهَا جَاءَتْ لِتَرَى النَّبى ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تحدَّثت عنه الكتب السماوية ، وأنها ستؤمن به ، وتمنت أن تتزوج مسلماً آمن بهذا النبى ﷺ ، لكنها وجدت نفسها مرتبطة بالنبى ﷺ نفسه فتمسكت بما يجب أن تكون عليه من خُلُق وآداب ، فلم تشترك مع غيرها من زوجاته فى مناقشات أو فى جدلٍ وكلامٍ ، فعاشت تعبد الله - عَزَّ وَجَلَّ - فى صمت ، وتقوم بواجبها نحو زوجها رسول الإنسانية ﷺ .

وتمنت أن تحدث معجزة ، فتحمل وتلد غلاماً فتكون مثل السيدة هاجر المصرية - رضى الله عنها - التى تزوجها سيدنا إبراهيم

---

(١) راجع إن شئت الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، للسيوطى (ج ٦ ص ٢٤٠) ، المكتبة الإسلامية - طهران ، والآيات من سورة التحريم (١ - ٣) .

فولدت له سيدنا إسماعيل - عليهما السلام - ، لكنها استبعدت ذلك ، فزوجاته لم تحمل واحدة منهن وقد عَاشَرْنَهُ سنوات ، ولكن الله سبحانه وتعالى حقق لها بعض ما أرادت فحملت ، ثم ولدت له إبراهيم - رضى الله عنه - .

لم تسلم السيدة مارية (رضى الله عنها) من سوء ظن بعض الناس ، وكان المقوقس قد أرسل معها وأُختها خادماً مأبوراً ليقضى لهما حاجتهما ، ويقوم بخدمتهما فيجمع لهما الحطب ، ويملأ لهما قِرَبَ الماء ، ويشترى لهما ما يحتاجان إليه من السوق .

فتكلَّم الناس فى غير ذلك ، وأساءُوا الظَّن غير مُقدّرين صلَة الغُرَبَاء عن البلاد ، فلم يلتمسوا عُذْراً ، وإنما قالوا متهكمين عِلْجٌ يدخل على عِلْجَة [1] .

بلغ ذلك الرسول ﷺ ، فأرسل سيدنا علىّ - رضى الله عنه - ، فوجد العبد يستسقى للسيدة مارية (رضى الله عنها) ، ثم إنه طرح قربة الماء ورقى فى نخلة ، فوقع نظر علىّ (رضى الله عنه) عليه فإذا هو خصى مجبوب ، فرجع إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - فأخبره الخبر ، فقال ﷺ : « أَصَبت إِنَّ الشَّاهد يَرَى مَا لَا يَرَى الغَائب » [2] .

ظلَّت السيدة مارية (رضى الله عنها) وفيَّة للرسول ﷺ فى حياة إبراهيم - رضى الله عنه - وبعد وفاته ، لكن لم تَطُل

---

(١) العِلْج : العبد .

(٢) طبقات ابن سعد (١٥٥/٨) .

حياة النبى ﷺ بعد أن فقد فَلْذَة كبده ، فقد مرض مرضه الأخير ، فكانت تحضر مع الزوجات فى أيامه الأخيرة ، وظلت كذلك حتى ناداه منادى الرحيل ، وصعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، فاشتد حزنها عليه ، وبكته بدموع غزيرة .

ثم لزمت بيتها فى المدينة ولم تفكر فى الرجوع إلى بلدها أو تتصل بأهلها فى مصر .

عاشت فى عزلة تامة أشبه بعزلة المتعبد ، ولم تكن تلقى أحداً غير أُختها (سيرين) زوج حسان بن ثابت (رضى الله عنه) .

كان يزورها من وقت لآخر أول الخلفاء الراشدين أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ، وكان يتولى الإنفاق عليها ، ومراعاة أحوالها وحاجاتها .

ولما لحق أبو بكر الصديق بالرفيق الأعلى ، وتولى عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - ، أسرع فى زيارتها ، وتولى قضاء حاجاتها ، وأغدق عليها الخير الكثير ، فهيأ لها حياة طيبة .

كانت تخرج من وقت لآخر لقضاء الصلاة فى مسجد المدينة ثم تيمم وجهها جهة الروضة الشريفة ، فتتلاحق الذكريات ، ذكريات المدة التى قضتها مع رسول الله ﷺ ، لا يصرفها عن الاسترسال فى هذه الذكرى إلَّا أنها ستلحق به فى جنات الخُلْد .

ستظل مقيمة فى المدينة التى بنى بها الرسول ﷺ فيها وستدفن قريبة منه ﷺ .

كانت أحياناً تتجه إلى البقيع لتكون قريبة من رفات ابنها إبراهيم – رضى الله عنه – فتناجيه بما شاءت من المناجاة ، ثم ترجع إلى بيتها فتزيد من عبادتها ، وشكرها لله – عَزَّ وَجَلَّ – على ما وفقها باختيارها قرينة لخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

لقد لزمت – رضى الله عنها – الصَّمت ، فما تحدَّثَتْ بحديث عن رسول الله ﷺ ، ولا رَوَتْ كلمة عنه أو شيئاً يتصل بحياتها فى بيت النبى ﷺ ، حتى كانت السنة السادسة عشرة من الهجرة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – ، ولما علم – رضى الله عنه – بوفاتها جمع لها من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ ودفنوها فى البقيع على مقربة من ابنها إبراهيم ، رحمهما الله ورضى عنهما .



أبناؤه البنون ﷺ

أولاً : القاسم .

ثانياً : عبد الله .

ثالثاً : إبراهيم .

أَبْنَاؤُه البَنُونَ ﷺ

للنبىّ محمد ﷺ سبعة أولاد ، ثلاثة من البنين ، وأربعة من البنات وكلهم من السيدة خديجة بنت خويلد ما عدا إبراهيم فإنه من السيدة مارية المصرية - رضى الله عنهم أجمعين - .

★ ★ ★

١ - **القاسم** : ولد قبل البعثة ، وكان ﷺ يكنى به ، ولم يُعَمّر القاسم طويلًا ، فقد مات وهو طفل رضيع ، وكان قد بلغ سن المشى ، ولم يكن قد اكتمل إرضاعه ، وقد حزنت السيدة خديجة - رضى الله عنها - حزناً شديداً على فقده ، وكانت ترجو أن يكون لها من محمد بن عبد الله ﷺ الولد ، فالمجتمع العربى ما يزال يفضل الولد على البنت ، ويعتبر أنه الأصل ، ومنه يستمر النسب ، وبه تكون القوة والاطمئنان ، ولولا مجىء الإسلام ، فخفف من التعصب للولد ، وبين أن الذى يعطى هو الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وأنه لا فرق بين الجنسين لظلت التفرقة والتفضيل كما كانت فى الجاهلية .

★ ★ ★

٢ - ثم منّ الله سبحانه وتعالى على خديجة - رضى الله عنها - بمولود ذكر ثان ، أسموه عبد الله ، ولُقِّب بالطّاهر والطّيب ؛ لأن ولادته كانت بعد البعثة ، وتشاء إرادة الله سبحانه وتعالى أن يموت وهو طفل لحكمة خفيت علينا ، فلو كانت الرسالة والنبوة

بعد سيدنا محمد ﷺ لكانت فى ولد من أولاده ، كما كانت لإبراهيم ، وولده إسماعيل - عليهما السلام - ، ولكن سيدنا محمد كان خاتم الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ويؤيد أنَّ ولادته كانت بعد البعثة ما روى : « أَنَّ رَسُول الله ﷺ دخلَ على خديجة - رضى الله عنها - وهى تَبكى بعد أن استرد الله وديعته عبد الله ، وكان قد بُعِثَ ﷺ ، فقالت السيدة خديجة تخاطب زوجها : « درت لُبَيْنَة [1] عبد الله ، فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعه يهوّن عَلَيّ » .

فقال ﷺ : « إِنَّ لَهُ مُرْضِعاً فِى الجَنَّة تستكمل رضاعته » .

قالت - رضى الله عنها - : « لو أعلم ذلك لهون عليّ » .

قال ﷺ : « إِنْ شئت أَسْمعتك صَوتهُ فى الجنَّة » .

فردت - رضى الله عنها - : « بل صدق الله ورسوله ﷺ » [2] .

ويؤيد ذلك ما جاء فى سورة الكوثر وسبب نزولها [3] :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [4] .

فقد روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « وَلَدَتْ خديجة من النّبىّ ﷺ عبد الله ، ثم أبطأ عليه الولد من بعده ،

---

(١) لبينة : تصغير لبنة ، وتعنى به بقايا اللبن فى ثديها (رضى الله عنها) .

(٢) أحمد (٢٩٧/٤ ، ٣٠٤) .

(٣) رواية ابن عباس (رضى الله عنهما) فى تفسيره . (راجع إن شئت تفسير ابن عباس (رضى الله عنهما) ، هامش كتاب الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، للسيوطى ج ٦ ص ٤٠٢) .

(٤) سورة الكوثر كاملة .

فبينما رسول الله ﷺ يُكلِّم رجلًا ، والعاص بن وائل ينظر إليه قال له الرجل : مَنْ هذا ؟ قال : هذا الأبتر ، فأنزل الله ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [1] .

قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : « فمبغضك أبتر عن أهله وولده وماله وعن كل خير لا يُذكر بعد موته بخير وهو العاص ابن وائل السهمى ، وأنت تُذكر بكل خير كلما أُذكر ، وذلك أنهم قالوا : إن محمداً ﷺ هو الأبتر بعد ما مات ابنه عبد الله » .

وقال صاحب الكشاف فى تفسيره سورة الكوثر قوله : (إنَّ مَنْ أبغضك هو الأبتر لا أنت ؛ لأن كل من يولد من المؤمنين إلى يوم القيامة فهم أولادك وأعقابك وذِكْرك مرفوع على المنابر وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر ، يُبْدَأ بذكر الله ، ويُثَنَّى بذكرك ، فمثلك لا يقال له أبتر ، وإنما الأبتر هو شانئك المنسى فى الدنيا والآخرة ، وإن ذُكر ذُكر باللعن) [2] .

وقيل أيضاً فى تفسيرها : (لقد أعْطاك الله ما هو أفضل من الولد ، وهو النهر الكوثر الذى يجرى فى الجنة ، أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى مذاقاً من العسل ، فَصَلِّ لربك وانحر شكراً لله على هذه النِّعمة) .

وسورة الكوثر مكية ؛ فهى الخامسة فى ترتيب تاريخ النزول ، فكانت مبكرة ، وقد بلغت السور المكية تسعاً وثمانين سورة ،

---

(١) سورة الكوثر ، الآية (٣) .

(٢) الكشاف ، للزمخشرى (ج ٤ ص ٢٣٧) .

ويؤيد ذلك أن جمهور المفسرين أجمعوا على أنها نزلت فى العاص ابن وائل السهمى أحد أشراف مكة الذين ساروا إلى أبى طالب يسألونه أن يرد ابن أخيه عن دعوته .



٣ - الابن الثالث هو إبراهيم بن محمد ﷺ وليست أُمُّه خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - ، وإنما هى مارية المصرية - رضى الله عنها - ، وكانت تحت رسول الله ﷺ ، وحينما حملت به كانت صغيرة ، وجاءتها أعراض الحمل ، فلم تعرفها ، وظنت أن ما بها مرض عام ، فراحت أُختها (سيرين) تُمَرِّضها إلى أن زارتها جارة لها ، وعرفت أن ما بها ليس مرضاً عامًّا ، والذى بها ما هو إلّا أعراض حمل .

راحت مارية (رضى الله عنها) تنظر إلى أُختها نظرة تساؤل واستغراب ، كيف يكون حملًا ، وما حملت واحدة من التسع اللاتى تحت الرسول ﷺ ، حتى تكون قدوة ، لكنها رجت أن يكون صحيحاً ، وأن تتحقق الأُمنية ، فتكون أُمًّا لابن نبى كما كانت هاجر المصرية أُمًّا لإسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ؟

إنها ستكون فى منتهى السعادة إذا ما حصل لها ما حصل لهاجر ، إن بينهما شَبَهٌ كبير فكلتاهما مصرية أُهديت لنبى .

ظَلَّت فى أحلامها التى رجت أن تتحقق ، وأن ما ترجوه أن يكون مولودها ذكراً ، فيكون أول السُّلم فى تحقيق ما تتمناه .



اهتم بأمرها رسول الله ﷺ ، وسهرت على راحتها أُختها (سيرين) حتى دنت ساعة الوضع ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قابلتها سلمى زوج أبى رافع (رضى الله عنه) ، فتولَّت رعايتها ، ومساعدتها حتى وضعت مولودها ، فَسَمَّت وَكَبَّرتْ ، وأسرعت إلى رسول الله ﷺ تُبَشِّره وتبارك ، وكانت بادية السرور والانبساط ، فرحب بها رسول الله ﷺ ، فأكرمها غاية الإكرام ، وذهب إلى مارية (رضى الله عنها) فهنأها ، وإلى وليدها فحمله بين يديه ، وكَبَّر وحمد الله ، ودعا له بالخير ، وسمَّاه إبراهيم تيمناً باسم جدّ الأنبياء ، ثم تصدَّق بوزن شعره وَرِقاً .



تنافس أنصار المدينة فيمن تُرضعه ، وأحبوا أن يأخذوه ليرضعوه ... فجاءت أُم بردة واسمها خولة بنت المنذر وهى زوجة البراء بن أوس من بنى النجار (رضى الله عنه) ، فكلمت رسول الله ﷺ فى أن ترضعه ، فكانت تُرضعه بلبن ابنها ، وذلك فى بنى مازن من بنى النجار وترجع به إلى أُمِّه .

أعطى رسول الله ﷺ للمرضعة قطعة من نخل ، وجعل لها سبعاً من الماعز تحت تصرفها تستعين بألبانها إذا لم يوف ثدياها بغذائه وإطعامه ، ولم يدم رضاع أُم بردة له ، فكانت ترضعه بعد ذلك أُم سيف ، وكان النبى ﷺ يختلف إلى منزل أُم سيف ليرى ابنه .

قال شيبان : انطلق رسول الله ﷺ فاتبعته ، فانتهى إلى أبى سيف وهو ينفخ كيره ، وقد امتلأ البيت دخاناً فأسرعت المشى بين يدى رسول الله ﷺ حتى انتهيت إلى أبى سيف ، فقلت : يا أبا سيف ! أمسك ... جاء رسول الله ﷺ ، فأمسك ، فدعا

رسول الله ﷺ بالصبى إبراهيم فضمَّهُ إليه ، وقال : ما شاء الله أن يقول ...

وكان يمر عليه إذا كان بالمدينة ، يحمله ويهدهده ، ويرى فيه أُنْسَهُ ومسرَّته ونَفْسَه .

كان ﷺ يحمله أحياناً ، ويمر به على نسائه ، ويدفعه إليهن .

حمله ﷺ يوماً بين ذراعيه ، وذهب به إلى السيدة عائشة - رضى الله عنها - ، ودعاها لتنظر إلى وجهه لترى الشَّبَهَ الكبير بينه وبين فلذة كبده ، لكنها لم تأخذ الأمر بسهولة ويسر ، فنظرت إليه وقالت - وهى مغضبة - : إنها لا ترى بينهما شَبَهاً .

وأدرك النبى ﷺ ما أثار غضب عائشة - رضى الله عنها - ، وأنها لتتمنى أن يكون لها مولود مِثْلَهُ !! لكنها تؤمن إيماناً قاطعاً أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - هو الذى يُعطى ، وهو الذى يمنع ، ومع ذلك لم تستطع أن تتحكم فى نفسها فتخفى ما بداخلها من غيرة .

★ ★ ★

. كان الوالد ﷺ يلحظ نموه ، ويتابع نظراته التى تلتقى بعينيه ، ويلاعبه ويحادثه ، ولكن ذلك لم يدم طويلًا ، وقد بلغ إبراهيم شهره الثامن عشر ، وزاد تعلقه به ، لكن المرض داهمه ، ولم تَدْرِ الأُمّ ماذا تفعل ، واستعانت بخالته (سيرين) وراحا يمرضانه ، ويطلبان له الدواء ، وانتقلتا به إلى نخيل العالية ، ولكن المرض اشتد عليه ، ولم يُغْنِ الدواء ولا التمريض ، وفجأة وجدتاه يحتضر ، فأرسلتا سريعاً إلى أبيه ، وعندما حضر ، وكان معتمداً على كتف عبد الرحمن ابن عوف أُخْبر بما عليه حال إبراهيم ، ووجده فى حِجْر أُمِّه يجود

بنفسه ، فأخذه ووضعه فى حِجره ، وقد بدا الحزن الشديد على وجهه ، ثم فاضت روحه .

انهمرت الدموع من عينى رسول الله ﷺ وهو يقول : « إنا يا إبراهيم لن نغنى عنك من الله شيئاً » وسمع أُمَّه وخالته تصيحان فلم ينههما ... ولم يزد على أن قال : « يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنّا عليك أشد من هذا » .

ثم قال ﷺ : « تَدْمَع العَين ، ويَحْزَن القَلْب ، ولا نقول إلَّا ما يرضى الرَّبّ وإنَّا يا إبراهيم عليكَ لمحزُونُون » .

رأى المسلمون ما بالرسول ﷺ من حزن فبكوا من أجله ، وحاول بعضهم أن يُخفِّف عنهُ ما نزل به ، فذكّروه بما نهى عنه ، فقال ﷺ : « ما عن الحزن نُهيت ، وإنما نُهيت عن رَفْع الصَّوت بالبكاء ، وأنَّ ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبَّة ورحمة ، ومن لم يبد الرحمة ، لم يبد غيره عليه الرحمة »[1] .

ثم أراد النبى ﷺ أن يُخفِّف عن مارية (رضى الله عنها) وأُختها الحزن ، فقال ﷺ : « إنَّ لهُ لمرضعاً فى الجنَّة »[2] .

ثم غسلته أُمّ بُرْدة (رضى الله عنها) ، ووضع على سرير صغير من الجريد وحمله الناس على أعناقهم ، وساروا به فى موكب فيه رسول الله ﷺ وعمه العباس - رضى الله عنه - وجمع كبير من أصحاب رسول الله ﷺ حتى وصلوا به إلى البقيع ، وهناك صلى عليه الرسول ﷺ فكبر أربع تكبيرات ، ونزل فى قبره الفضل ابن العباس ، وأُسامة بن زيد (رضى الله عنهم) ، وجلس النبى ﷺ على شفير القبر ، وقال : « ندفنه عند فَرَطنا عثمان بن مظعون ،

---

(١) مسانيد (٥٧٦/٢) .　　(٢) أحمد (٣٠٠/٤ ، ٣٠٢) .

ثم رأى فَرْجَة من اللَّبن ، فأمر بسدِّها وقال : « ندفنه عند سلفنا الرجل الصالح » .

ووضع حجراً عند رأسه ليكون علامة ، وقال ﷺ : « إنَّهَا لا تَضُر ولَا تنفع ، ولكنها تُقِرّ عين الحيّ ، وإنَّ العبد إذا عملَ عملًا أحب الله أن يتقنه » .

ثم سوى عليه ﷺ بيده وقال : « هل من أحد يأتى بقربة ؟ » .

فأتى رجل من الأنصار بقربة ماء ، فقال ﷺ : « رشها على قبر إبراهيم »[1] .

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس ، فرأى الناس فى ذلك كرامة ، وقالوا : إنها انكسفت لموته ، وسمعهم النبى ﷺ فقال : « إِنَّ الشَّمس وَالقَمَر آيتان مِنْ آيَاتِ الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإِذَا رأَيتُم ذلك فافْزعُوا إِلَى ذكْرِ الله بالصَّلَاة »[2] .

قال محمد حسين هيكل – رحمه الله – : (أية عظمة أكبر من ألا ينسى الرسول ﷺ رسالته فى أشد المواقف التى تملأ النفس بالفجيعة والهول ! لقد وقف مَنْ تناول من المستشرقين هذا الحديث لمحمد ﷺ موقف الإجلال والإعظام ، ولم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكبارهم وإعلان عرفانهم بصدق رجل لا يرضى فى أدق المواقف إلَّا الصدق والحق) .

وقد حدد (محمود الفلكى) تاريخ وفاة إبراهيم بيوم الاثنين ٢٩ من شوال سنة عشر من الهجرة الموافق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ م وهو اليوم الذى كسفت فيه الشمس كسوفاً كليًّا بالمدينة المنورة .

---

(١) طبقات ابن سعد (٩١/١/١) ، و« كنز العمال » : انظر (٤٢٤٠٣) .

(٢) البخارى (٢ : ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩) ، ومسلم « الكسوف » (١ ، ٣ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٩) .

بناته ﷺ

أولًا : السَّيدة زَينبُ الكبرى .

ثانيًا : السَّيدة رُقيَّة .

ثالثًا : السَّيدة أُم كُلثوم .

رابعًا : السَّيدة فاطمة الزهراء .

بَنَاتُهُ ﷺ

كُنَّ أربع بنات ، وكلهن من السيدة خديجة بنت خويلد ، وهن : زينب ، ورُقية ، وأُم كلثوم ، وفَاطمَة - رضى الله عنهن - .

وكانت المجتمعات العربية التى لم تبتل قبل الإسلام بعادة وأد البنات تفضل الولد على البنت لما يقوم به الولد من عون لأهله فى جميع مناحى الحياة ، ومساعدة للأب وللمجتمع فى السلم وفى الحروب ، وما نشك فى أن المجتمع المكى كان كذلك ، ولكن عندما كانت تولد لهم بنت ، فإنهم يحسنون تربيتها ، ويؤهلونها لكى تشترك بصفةٍ ما فى إقامة مجتمعهم هذا .

ولا شك فى أن الذين أتوا إلى مكة أُعجبوا كثيراً بما تتحلَّى به نساء مكة من احترام الرجل القرشى للمرأة ، ومشاركتهن للرجال فى كثير من الأُمور ، فلقد قدرها الرجل فى تلك البقعة ، وترك لها الحرية المقيدة بعادات وتقاليد الأحرار البعيدة عن كل ما يشين ، وعرفت المرأة ذلك ، فكانت عالية الهمّة شامخة الرأس ، يحوطها الخُلُق الحَسَن ، والمعرفة لما يجب عليها تجاه مجتمعها .

ويؤيد ذلك قول الرسول ﷺ : « خَير نسَاء ركبن الإبل نساء قُريش أحناه على ولد فى صغَره ، وأَرعاه على بعل فى ذات يد » (١) .

ومكانتها عَبَّر عنها الشاعر فقال :

ولم يكن مقام المرأة فيهم مهيناً   بل إن لها لديهم مقاماً كريماً

---

(١) البخارى (٧/٨٥) .

ولا ينسى التاريخ ما قامت به أُم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب وعمة النبى ﷺ فى حلف المطيبين ، وما قامت به هند بنت عتبة فى يوم أُحد ، وما قامت به السيدة خديجة (رضى الله عنها) من مشاركة الرجال فى التجارة ، ومن معاونتها لزوجها فى الإعداد للرسالة ، والسيدة رملة بنت أبى سفيان وموقفها من أبيها ، وهند بنت أُمية المخزومية ، ثم موقف زينب بنت محمد ﷺ من ابن خالتها أبى العاص فى مكة والمدينة .



أما وأد البنات ، وما أخبرنا به القرآن الكريم ، فقد كان عند بعض القبائل وذلك خوف العار ، وهو مجتمع الحرب والإغارة ، وحماية لثرواتهم ومراكزهم وجاههم ، وأسرهن فى الحروب ، واتخاذهن جوارى وخدم ، وأيضاً خوف الفقر والحاجة ، ومخافة أن يتزوجن غير أكفاء .

وقد وفد على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة المنورة قيس ابن عاصم ، واعترف أمامه بأنه ما ولد له بنت إلّا وأدها ، سأله أحد المهاجرين قائلًا : ما الذى حملك على وأد بناتك وأنت أكثر العرب مالًا ؟

فقال وهو مسرع فى إجابته : مخافة أن يتزوجهن مثلك !

فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « هذا سيد أهل الوبر »[1].



---

(١) المقصود بأهل الوبر : هم أهل البادية . انظر : « المستدرك » (٣/٦١١ ، ٦١٢) .

السَّـيدَةُ زَيْنَب (رَضِىَ اللَّـهُ عَنهَا)
بنت مُحَمَّـد ﷺ

كانت السيدة زينب - رضى الله عنها - أول مولود بُشِّر به سيدنا محمد ﷺ من زوجته الأولى خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - ، ومن العادة أن المولود الأول يكون له فرحة لا تدانيها فرحة ، رأى الزوج أن هذه ثمرة زواج سعيد قام على حب عظيم فحمد الله وأثنى عليه ، وفرح بما أعطاه الله - عَزَّ وَجَلَّ - .

كانت السيدة خديجة أكثر سروراً وفرحاً إذا رأت البِشْر والسعادة تعلو وجه الزوج فهى فرحة بالمولودة ، وفرحتها لفرح الزوج الذى دعت الله سبحانه وتعالى أن يديم عليها ارتباطها بهذا الرجل .

عزمت على أن تنشئها تنشئة عربية عريقة ، فعهدت بها إلى مرضعة تنطلق بها إلى الصحراء حيث الهواء الطلق ، والبعد بها عن قيظ مكة وحرها ، وكان أشراف العرب من أهل مكة يبعثون بصغارهم إلى مُرضعات من أهل البادية ، ثم يُعيدونهم إلى ذويهم بعد مُضىّ ما يقرب من سنتين أو تزيد ، وبخاصة فى الذكور من الأبناء .

رجعت زينب إلى حضن أُمّها ، فعهدت بها إلى مربية تسهر معها على راحتها ، وتتابع نموها ، وتحافظ على صحتها وتقويمها حتى بلغت العاشرة ، وبدأت تدخل فى عهد الصبا ، وكانت خالتها (هالة بنت خويلد) أخت خديجة تُقْبل على زينب بالفرح

والسرور ، وتتمنى أن تكون زوجة لابنها أبى العاص ، لتقوّى الصِّلَة بينها وبين أُختها خديجة (رضى الله عنها) التى ما كانت تفارقها يوماً ، فهى دائمة الإقامة عندها فتعتبرها أُختاً وأُمًّا ، وكانت خديجة (رضى الله عنها) تغدق عليها من خيرها رغم أن هالة كانت تعيش فى يسر ورخاء .

لم تُلمح هالة لأُختها باختيار زينب لأبى العاص ، بل صارحتها بأن لا تفكر فى أحد غير أبى العاص بخطبة زينب .

وافقت خديجة (رضى الله عنها) على ما قالت به أُختها ، وألحت للأب إلى ما قالته أُختها هالة من الرغبة فى الموافقة على خِطبة زينب لأبى العاص .

فأبو العاص فضلًا على أن أُمه هالة أُخت خديجة (رضى الله عنها) ، فهو قرشى مكى يلتقى نسبه من جهة الأب مع محمد بن عبد الله ﷺ عند الجدّ الثالث عبد مناف بن قصى ، فهو أبو العاص ابن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى .

ويلتقى نسبه من جهة الأُم مع زينب بنت محمد ﷺ عند جدّها الأقرب خويلد بن أسد بن عبد العزى .

وهذا زيادة على ما يتحلى به أبو العاص من كريم الخصال ونبيل الفعال رغم صغره ، فحينما ذهب أبو العاص إلى زوج خالته ليخطب منه ابنته كما هى العادة أن يتقدم الخاطب إلى الأب رحب به محمد ﷺ فكان جوابه : إنه نعم الصِّهْرُ الكفء ، وإنه لا يرى فيه عيباً ، فهو منهم وهم منه ، وطلب منه مهلة يسيرة ليتأكد أن زينب موافقة على ابن خالتها ، فلم يقطع برأى دونها ...

تأكد الأب من موافقة ابنته ، فهنأ أبا العاص ، وبدأوا فى الاستعداد ليوم الزفاف .



تهيأ الجميع لليوم الذى تلتقى زينب فيه بابن خالتها ، وسرى الخبر فى أرجاء مكة ، وأتى الأهل والأقارب والأصدقاء ، وذبحت الذبائح ، وأُقيمت الموائد ، وقد دُعِىَ لها من كان مقيماً بمكة ومن أتى من خارجها ، ثم انتقلت زينب إلى بيت الزوجية .

كانت زينب سعيدة مع أبى العاص ، وكان يعمل بالتجارة ، فيذهب إلى سوق حباشة ، أو إلى أطراف الجزيرة أو إلى أرض الشام ، فتقيم مع خالتها هالة أُم أبى العاص ، وكثيراً ما تذهب الاثنتان إلى بيت السيدة خديجة (رضى الله عنها) .

ولكن أمراً جديداً قد طرأ على بيت الأب والأُم ، فالأُم قد شغلت بالأحوال الطارئة على الزوج ، فقد انقطع الأب إلى التعبد والتأمل فى غار حراء ، وتفرغت الأُم إلى أمره فتهيىء له أسباب الراحة والهدوء ، وتراقب ذهابه ورجوعه من بعيد ، فترسل من يأتيها بأخباره ، ثم حدث أمر ليس له سابقة ، فقد نزل على محمد ﷺ الوحى ، يخبره صاحبه أنه نبى هذه الأُمة ﷺ ...

اجتمعت السيدة خديجة (رضى الله عنها) ببناتها الأربعة : زينب ، ورقية ، وأُم كلثوم والصغيرة فاطمة ، وعرضت عليهن الدعوة التى جاء بها والدهن فما كان منهن إلَّا أن آمنّ بما جاء به الوالد ، وأنه للحق من عند الله – عَزَّ وَجَلَّ – ، وبدأت زينب حياة جديدة مع زوجها .

أخبرت زينب زوجها بالنبأ اليقين ، وانتظرت منه أن يسرع فيؤمن بما آمنت به ، فهو يعرف جيداً زوج خالته ، وما كان عليه من خُلُق وما يقوم به من أعمال خيّرة ، لكنه لم يعقب بكلمة ، وظل صامتاً .

سألته زينب : مالك لا تجيب بكلمة ؟ ولماذا لم ترد عليّ ؟

قال أبو العاص : هل عرفت موقف أهل مكة من أبيك ؟

قالت : وما هو موقفهم يا ابن العاص ؟

قال : إنهم ثائرون عليه ، يتربصون به حتى إن بعضهم يؤذيه بالكلمة النابية !

قالت : وما الذى يهمنا نحن ، وما علينا إلَّا أن نقف بجواره نساعده ونحميه منهم .

قال : ولكن ماذا أعمل ، وتجارتى مع سادات مكة ومن معهم ، ألاتعرفين أنى أتعامل معهم ، وأبيعهم السلاح ، فإذا عاديتهم فمع مَنْ أتعامل ؟

قالت : هل ترى أنك ستظل على دينهم ؟

قال : ولما لا أظل على دين قريش ما دام فى هذا مصلحتنا ؟

قالت : وهل ستعادى أبى مثلهم ؟

قال : لا ... لن أُعادى أَباك ، ولن تصدر منى كلمة تسىء إليه ، وسأظل على احترامى وتقديرى له .

قالت : وإذا طلب سادة مكة أن تشترك معهم فى إيذاء أبى ؟

الحصار ، فقد كانت الأخبار تأتيها من أفواه الأعداء الذين يتباهون بما يُصيب المؤمنين فيعيشون فى محنة وعذاب .

ثم انجلت المحنة ، وفك الحصار ، وخرج بنو هاشم من الشِّعْب ، ليبدءوا حياة جديدة وهم بين الإعياء والأمراض .

واشتدت وطأة الكفار على المسلمين ، وماتت الأُم وأبو طالب عمّ النّبىّ ﷺ ، وأخذ المسلمون يهاجرون فراراً بدينهم ، ولم يبق مع النّبىّ ﷺ إلّا عدد قليل .

وجاء دور المؤامرة الكبرى ... ومحاولة قتل النّبىّ ﷺ ، فكانت الهجرة إلى المدينة ، وفرحت زينب كثيراً حينما جاءت الأنباء بوصول النّبىّ ﷺ سالماً معافى إلى يثرب ، فهدأت نفسها ، واطمأن بالها .

كانت تتردد على من بقى فى بيت العائلة لترى أُم كلثوم وفاطمة لتؤنسهما ، وتقضى لهما حاجاتهما ، وظلت كذلك إلى أن جاء رسولٌ من يثرب فصحب أُم كلثوم وفاطمة إلى أبيهما ، وكان فرحة زينب بوصولهما إلى أبيهما كبيرة .

وخلت الدار من الجميع ، فالأُم قد لحقت بولديها القاسم وعبد الله ، والأُخت رقية راحت تتنقل مع زوجها من مكة إلى الحبشة ، ومن الحبشة إلى مكة ، ثم استقر بهما المقام فى يثرب مع زوجها ووالدها ، أما زينب فقد استقر بها المقام مع زوجها أبى العاص وولديها على بن أبى العاص ومن بعده أُمامة بنت أبى العاص ، فكان فيهما وفى والدهما بعض السلوى والاستقرار .



لم ينس المسلمون وهم بيثرب ما لقوه من عذاب واضطهاد من المشركين فى مكة ، أما وقد أصبحوا قوة فليس أمامهم إلّا أن يفكروا فى الانتقام ، فراحوا يتربصون بالمشركين ، ووجدوا أن أعظم لطمة يوجهونها لهم هى قطع الطريق التجارى عليهم ، وهو الطريق الحيوى بين مكة والشام إذ لابد لأهل مكة من مرورهم بالقرب من يثرب ، فبدأوا يتربصون بالقوم حتى إذا وافتهم أول فرصة تجمعوا لها ، فقد جاءتهم الأخبار أن قافلة تحمل بضائع من الشام لأهل مكة ، يقودها عمرو بن الحضرمى فاستولوا على ما فيها من متاع ، وأخذوا رجالها أسرى ، وقتلوا ابن الحضرمى .

وصلت أخبار استيلاء أصحاب محمد ﷺ على التجارة ، وأسر الرجال وقتل عمرو بن الحضرمى إلى أهل مكة ، فأصابهم ذهول ، فكانوا بين المصدقين والمكذبين ، لكنهم فوجئوا بصوت ضمضم بن عمرو الغفارى يشق الفضاء حتى وصل إلى أسماع أهل مكة ينادى ويقول : يا معشر قريش ... اللطيمة اللطيمة ... أموالكم مع أبى سفيان ، قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى لكم أن تدركوها ... الغوث الغوث !!

وكاد الجنون أن يستولى على أهل مكة ، أيفعل محمد مثل هذا وقد خرج هارباً من القتل فى مكة وحده لا جيش ولا مال ؟ لقد حان الوقت للقضاء عليه وعلى الشرذمة التى معه .

جمعوا جموعهم ، واستعدوا للقتال ، ولكن أبا سفيان كان قد غير طريقه ووصل سالماً إلى مكة ، وأبى إلّا أن يشترك مع القوم فى القضاء على محمد ، فانضم إلى الجموع المتجهة إلى يثرب ، وهناك

تقابل جيشه الكبير عدداً وعتاداً مع القلة المؤمنة بقيادة النَّبىّ محمد ﷺ عند ماء بدر .

كانت زينب تتابع أخبار أهل مكة ، وهم يستعدون لقتال المسلمين ، فتدعو لأبيها ومن معه بالفوز على تلك الجموع المشركة ، وتَعْجَب من اشتراك زوجها فى القتال مع المشركين ، فقد أخذته العزّة فاشترك فى القتال ، ولا ندرى السبب الأصلى الذى جعله يشترك فى هذه الحرب ، أَحُبًّا فى الغنيمة ؟ أم لتمويل جيش المشركين بالسلاح لأنه تاجر أسلحة ؟ أم خوف اللوم من قومه واتهامه بأنه تخلى عن قومه وقت الشدة ، وهذا سينتقص من قدره ومكانته عند سادة مكة ، أم أنه كان يعتقد أن مكة ستنتصر على محمد ﷺ ومن معه فيكون له شفيعاً عندهم فهو زوج خالته ووالد زوجته الذى فضله على غيره من الذين تقدموا لخِطْبَة زينب ، كل هذا قد يَرِدُ على الخاطر ، ولكن حصل ما لم يكن فى الحسبان ، فقد انتصر المسلمون فى موقعة (بَدْر) وذهبت أحلام أبى العاص أدراج الرياح ، وقُتل صناديد قريش ، وتوالت الأخبار على مكة تحمل أسماء القتلى حتى ظن المقيمون بها أن أحداً من أهل مكة لم ينج من القتل .

فرحت زينب بانتصار النَّبىّ ﷺ ، لكن فرحتها لم تكتمل ، لقد طلبت من زوجها ألا يذهب مع القوم ، لكنه لم يطاوعها وهو الآن فى عداد القتلى ، وتيتم طفلاها ، فكيف تكتمل فرحتها وأبو العاص بين القتلى ؟

لقد أصبحت فى حيرة من الأمر ، وظلت ليلها ساهرة حتى طرقت بابها عاتكة بنت عبد المطلب ، فأسرعت بلقائها ، وابتدرتها قائلة : ما الأخبار ياعمتاه ؟ كل خير يا زينب !

قالت زينب : لن يكتمل الخير إلَّا بالاطمئنان على أبى العاص .

قالت عاتكة : اطمئنى يا زينب فأبو العاص بخير .

قالت زينب : كيف يا عمتاه ؟

قالت عاتكة : لا تنزعجى ... فإنه لم يقتل ، بل وقع فى الأسر ، وسيرحل إلى يثرب .

قالت زينب : لقد استرحْتُ الآن يا عمتاه ، وكملت فرحتى بانتصار أبى .

★ ★ ★

لقد تمت الأخبار بوصول الذين فروا من جبهة القتال من جيش المشركين ممَّن لم يقتلوا أو يقعوا فى الأسر .

وصل الخبر إلى مكة أن المسلمين يرغبون فى افتداء الأسرى الذين فى قبضتهم ، ومنهم أبو العاص الذى رآه النَّبى ﷺ فأخذه معه بعد أن قال لأصحابه : « اسْتَوصوا بالأَسْرَى خَيراً »[1] .

أراد المسلمون أن يأخذوا بحقهم من المشركين ، فكانوا يضاعفون الفداء ، واستجاب أهل مكة لكل ما يطلبه المنتصرون رغبة فى التعجيل بفك الأسرى ، ورجوعهم إلى مكة حتى يقللوا من العار الذى وقعوا فيه .

كان مع مَنْ حضر من مكة أخو أبى العاص ليدفع الفداء ، فتقدم إلى النَّبىّ ﷺ قائلًا : أنا من عند زينب بنت محمد ، ومعى صرة ، قدَّمها إلى الرسول ﷺ وهو يقول : معى ما أفتدى به أبا العاص ، وأعطى الصُّرة للنَّبىّ ﷺ ، فلما رأى ما بداخل الصُّرَّة ،

---

(١) انظر : « كنز العمال » (١١٠٣٦) .

دهش وقال : لك الله يا زينب ! قلادة خديجة ... ثم سكت ، وذكر أن أُمّها أهدتها إليها ليلة عرسها حين زفت إلى أبى العاص .

سكت الصحابة ، وقد أخذوا بجلال الموقف ، ثم تكلم النَّبىّ ﷺ فقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها قلادتها فافعلوا » [1] .

فنطقوا جميعاً مِلْءَ أفواههم : نعم يا رسول الله ﷺ .

أطلقوا أبا العاص بن الربيع ، فالتقى بالرسول ﷺ ، فتحادثا فى موضوعات شتى ، ثم طلب منه الرسول ﷺ أن يخلى سبيل ابنته زينب فما عادت تَحِلُّ له ، حيث اختلف دينهما ، فهو ما يزال على دين قريش ، وقد منع الإسلام أن يتزوج المشرك مسلمة أو يستمر زواجهما إن كان قد تزوجها من قبل المنع ، فيترك كل منهما صاحبه ، والسيدة زينب - رضى الله عنها - قد آمنت بالله ورسوله ﷺ منذ بدء الدعوة إلى الإسلام ، فوعد أبو العاص بأن يخلى سبيلها بمجرد أن يصل إلى مكة .

ثم استدعى الرسول ﷺ زيد بن حارثة (رضى الله عنه) ، وطلب منه أن يذهب وفى صحبته صحابى من الأنصار فينتظرا مرور زينب فى مكان ذكره لهما وهو بطن باجج فيصحبا السيدة زينب حتى يأتيا بها إلى أبيها ﷺ بيثرب .

ولما عاد أبو العاص بن الربيع إلى مكة طلب من السيدة زينب أن تتجهز لتلحق بوالدها ، وطلب من أخيه كنانة بن الربيع أن يعدّ لها بعيراً .

---

(١) أبو داود (٢٦٩٢) ، وأحمد (٦/٢٧٦) .

ركبت السيدة زينب بعيرها ، وأخذ كنانة قوسه ، وعلق سيفه ، ثم خرج نهاراً أمام القوم يقود بها البعير وهى فى هودجها .

★ ★ ★

علم القوم بقصتها ، وعلمت هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان بالخبر ، وكانت أحداث (بَدْر) وما جرى للمشركين لا تزال ماثلة أمام عينيها ، وصور قتلى المعركة لا تزال متمثلة فى ذهنها ، فكانت تخرج كل يوم من بيتها إلى أندية قريش ، تدعو للثأر من المسلمين الذين قتلوا أباها عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد ابن عتبة ، وابن عمها عبيدة ، والعاص بن سعيد بن العاص ، وابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان بن حرب .

أقبلت هند على السيدة زينب ، وتحكى - رضى الله عنها - ما دار بينها وبين هند ، فتقول : بينما أنا أتجهز بمكة للحوق بأبى ، لقيتنى هند بنت عتبة فقالت : يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحاق بأبيك ؟

فقلت : ما أردت ذلك .

قالت هند : أى ابنة عمى ! لا تفعلى ... إن كانت لك حاجة بمتاع ممَّا يرفق بك فى سفرك ، أو بمال تتبلغين به إلى أبيك ، فإن عندى حاجتك ، فلا تضطنى منى ، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال .

أتمت السيدة زينب كلمتها ، فقالت : والله ما أراها قالت ذلك إلَّا لتفعل ، ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أُريد ذلك ... ثم تجهزت للرحيل إلى يثرب .



علم القوم فى مكة بخروج زينب ، فجروا خلفها يتقدمهم هبار ابن الأسود ، ونافع أو خالد بن عبد قيس ، ونخس هبار بعير زينب ، فألقى بها على صخرة هناك ، وكانت حاملًا فى الشهر الرابع ، فسقط الجنين ، وأصابها ما يصيب الحامل التى سقط جنينها من الضعف والمرض .

وقف ابن خالتها أخو زوجها يستعد للقتال إلَّا أن القوم ابتعدوا عنه ، ووقف أبو سفيان بعيداً ، وراح يكلم كنانة بن الربيع ويناديه قائلًا : كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك ، فكف كنانة ، وتقدم أبو سفيان حتى اقترب منه أكثر وقال له : إنك لم تصب يا ابن الربيع ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا ، وإن فى ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها فسُلَّها سرًّا ، فألحقها بأبيها .

علمت هند بنت عتبة بما كان من القوم وما جرى لزينب من حدث ، والرجوع بها إلى بيت خالتها فآلمها ذلك ، فراحت تسخر من قومها وتلومهم قائلة : أمعركة على أُنثى عزلاء ؟ فهلَّا كانت هذه الشجاعة يوم بدر ... !!؟

أفى السلم أعيار جفاء وغلظة   وفى الحرب أشباه النساء العوارك

★ ★ ★

كانت زينب قد بلغت ذى طوى ، لكن ابن خالتها كنانة اضطر أن يرجع بها إلى مكة ، بعد أن فقدت جنينها ، واستمرت تنزف وأصابها إعياء وهبوط .

لزمت البيت حتى استراحت قليلًا، ثم تابعت المسيرة حيث التقت بزيد بن حارثة (رضى الله عنه)، ومَنْ معه، ثم وصلت يثرب.

كانت الأخبار قد وصلت إلى رسول الله ﷺ، فحزن الرسول ﷺ، وغضب غضباً شديداً، وتوعد وهدد وأمر بالانتقام لزينب من جرَّاء ما أصابها.

قال أبو هريرة - رضى الله عنه -: « بَعثَ رَسُول الله ﷺ سَرِيَّة أنا فيها، فقالَ لنا: إنْ ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر - سمَّاه ابن إسحاق، فقال: هو نافع بن عبد قيس - فحرِّقُوهما بالنَّار ... فلما كانَ الغد بعث إلينا فقال: إني كنت أَمَرْتكُم بتَحْريق هذين الرَّجلين إن أَخَذْتماهُمَا، ثُمَّ رأَيْت أنهُ لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار إلّا الله سبحانه وتعالى، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما »[1].

عاشت السيدة زينب - رضى الله عنها - مع طفليها فى رحاب والدها ﷺ، يتردد عليها ويلاعب عليّ وأُمامة، تتردد أحياناً على المسجد زينب، فترى رسول الله ﷺ وقد شغل بأُمور المسلمين، والدعوة تنتشر كالبرق فى أنحاء البلاد، ولكن العداء بين يثرب ومكة ما يزال على أَشُدِّه والمسلمون لم ينسوا أبداً ما فعل بهم سادات قريش، فالعداء ما يزال قائماً، وانتهاز الفرصة للانتقام ما تزال موجودة، والمسلمون يجوبون الصحراء كى يظفروا بمكيّ آت من الشام أو ذاهب إليها، والسَّرايَا تتابع جموعهم وتُجَّارهم كي يظفروا برجال من مكة، ومعهم تجارة، فيستولوا عليها، وبينما هم يجوبون الصحراء، وجدوا قافلة آتية من جهة الشام، فكمنوا لها،

---

(١) ابن أبى شيبة (١٢/٣٨٩).

ثم أحاطوا بها ، وأخذوا كل ما معهم ، وكادوا يأسرون الرجال لولا أنهم فروا خوفاً من القتل .

اتجه رجال القافلة إلى بلدهم مكة إلَّا أبو العاص فإنه احتار فيما يفعل ، وقد أعطاه كثير من قريش أموالًا طائلة ملزم بردها ، فراح يفكر فى طريقة يمكن لها أن ترجع هذه الأموال أو بعضها أو يعمل عملًا يرجع به إلى مكة يعرف منه أنه لم يقصر أو يهمل فى المال الذى كان معه ، وأنه فعل كل ما يقدر عليه .



لقد هداه تفكيره إلى أن يذهب إلى بنت خالته زينب بالمدينة لعله يجد عندها مخرجاً مما وقع فيه .

وعندما أقبل الليل ، وتحت جنح الظَّلام ، دخلَ المدينة ، وتَسَلَّل حتى صار على باب بيت السَّيدة زينب ، وناداها مُسْتَجيراً بها ، فأجارته ، وكانت بشائر الصَّباح قد لاحَتْ ، واستعدّ المصلُّون لصَلَاة الصُّبح ، وعندما كَبَّر الرسول ﷺ ، وكَبَّر الناس معهُ ، سَمعَ الجميع صَوْتاً يُنادى ، إنهُ صوت زينب تقول : أيها الناس .. إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع !

فلما سلَّم رسول الله ﷺ من الصَّلَاة ، أقبل على الناس فقال : « أيُّها النَّاس ، هل سَمعتُم ماسمعت ؟ قالُوا : نَعَمْ يا رسول الله ، قالَ : أما والَّذى نفس مُحَمَّد بيده ما علمت بشىء من ذلك ، حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهُم ، وقد أجرنا من أجارت »[1] .

---

(١) البيهقى (٩٥/٩) .

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى ابنته ، فقالت له : يا رسول الله ، أجرت أبا العاص !

فقال ﷺ « أى بنية أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك ، فإنك لا تحلين له »[1] .

قَصّ أبو العاص قصته على زينب ، فهو لم يأت مسلماً ، وإنما جاء لأمر عظيم ، فقد خرج إلى الشام بتجارة له ولقومه ، ومعه رجال من قريش ، وفى أثناء عودته هجمت عليه سرية من المسلمين فيها زيد بن حارثة (رضى الله عنه) ومعه مائة وسبعون رجلًا فأصابوا كل ما معهم ، وخافوا من القتل فولوا هاربين ، وولى هو أيضاً هارباً متخفياً إلى بيت بنت خالته .

قالت زينب : مرحباً بابن الخالة ، مرحباً أبا على وأُمامة .

فلما أشرقت الشمس بعث رسول الله ﷺ من يصحب أبا العاص إلى المسجد ، حيث كان يجلس النّبىّ ﷺ فى جمع من صحابته ، ومنهم الرجال الذين أصابوا أموال أبى العاص ومن معه ، قال لهم الرسول ﷺ : « إنَّ هذا الرجل منّا حيث قد عَلمتُم ، وقد أصبتُم له مالًا ، فإن تحسنوا وتردُّوا عليه الذى له فأنا أحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به »[2] .

قال صحابى مخاطباً أبا العاص : ألست ترى يا أبا العاص أن تسلم ، وتتوجَّه بالشُّكر لله أنْ رَدّ عليكَ الأموال فصارت إليك ؟

ولكن أبا العاص أجاب قائلًا : بئس ما أبدأ به إسلامى ، أن أخُون أمانتى ، فالمال أمانة لابد من ردها لأصحابها .

---

(١) انظر : « المستدرك » (٣/٢٣٦) . (٢) انظر : « المستدرك » (٣/٢٣٧) .

والتفتَ الصَّحابة إلى رسول الله ﷺ وقالُوا : يا رسول الله نَرُدّ عليه ماله ...

وأسرعوا يفعلون حتى إن أحدهم ليأتى بالدّلْو وبالإنَاء الصغير وبالسّقاء البالى إلى أن ردوا عليه ماله بأسره لم يفقد منه شيئاً .

ثم ودعه رسول الله ﷺ قائلًا : « حَدَّثَنِي فَصَدَقَنى ، وَوَعَدَنى فَوَفَّى لى »[1] .



عاد إلى قريش بماله ومالهم لم ينقص منه شىء ، وأخذ كل واحد منهم نصيبه ، وطلب منه الناس أن يقص عليهم كل ما حدث له في يثرب .

فأجابهم بقولهم : لا عليكم من هذا ، إنما تصغون إلى ما أقول .

قالوا : نحن منصتون لك شاكرين أن رددت إلينا كل أموالنا كاملة .

قال : بَقِيَتْ كلمة أخيرة .

قالوا : ... وما هى يا ابن الربيع ، فقد وجدناك وفيًا كريماً !

قال : فأَنَا أَشْهَدُ أَن لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبدهُ ورَسُولُه ، والله ما منعنى من الإسلام إِلَّا أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أدَّاها الله إليكُم فرغت منها وأَسْلَمت ...

نظر القوم بعضهم إلى بعض ، ثم رجعوا إلى مالهم ليتأكدوا من أنه لم ينقص منه شىء ، ولم يهمهم إسلام أبى العاص ؛ لأن

---

(١) البخارى (١٠٢/٤ ، ٢٨/٥ ، ٢٦/٧) .

الكثير منهم مشى متجهاً إلى يثرب ليكون مع محمد بن عبد الله ﷺ .

★ ★ ★

جمع أبو العاص كل أمواله وما له من متاع واتجه إلى المدينة لم يتعرض له أحد من البقية الباقية من سادة قريش إلى أن وصل إلى مسجد رسول الله ﷺ ، فلما رآه المسلمون فرحوا وهنأوه على أن جاء مختاراً لينضم إلى صفوف المسلمين ، أسلم على يدى رسول الله ﷺ ، وأثنى عليه رسول الله ﷺ كثيراً وسار إلى بيته ، ومعه ابن الربيع .

★ ★ ★

دعا رسول الله ﷺ زينب إليه ، فردها على أبى العاص بنكاح جديد بولىّ وشاهدين ، وقيل : ردها على النكاح الأول ، فلم تحتج لذلك .

واجتمع شمل أبى العاص وزينب وولديها علىّ وأُمَامة ، ومضى عام كامل على هذا اللّقاء إلى أن بدأت السنة الثامنة من الهجرة ، وكانت زينب لا تزال متأثرة بعلتها التى ألمت بها من جراء ما أصابها يوم أن عزمت على العودة إلى والدها فى يثرب ، وقد طرحت جنينها وأصابها ما أصابها من جراء سقوطها على صخرة الصحراء ، وظلت تعانى منها ، ولم يفد التمريض ولا عودة أبى العاص ، فلزمت الفراش تنتظر أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى قضى الأمر ، وانتقلت إلى الدار الآخرة .

جاء النّبىّ ﷺ وهو محزون الفؤاد ، فاستودعها الله ، وأوصى النسوة بأن يغسلنها وتراً ، وأن يجعلن فى الآخرة كافوراً ...

صلّى عليها أبوها فى مسجده ، ثم شيعها جمع من الصحابة الذين وجدوا فى المدينة إلى مثواها الأخير ، رحمها الله ورضى عنها .

★ ★ ★

قضى أبو العاص أربع سنوات بعد موت زوجته فى رحاب الإسلام والمسلمين ، يشترك معهم فى سلمهم وحربهم للأعداء ، يتأسى بالنظر إلى ابنيه علىّ وأُمامة ، وكثيراً ما كان الاثنان يترددان على جدّهما المصطفى ﷺ ، فكانت أُمامة صغيرة ، فكان يأخذها جدها معه إلى المسجد ، فينظر إليها فيراها صورة من ابنته زينب ، كان أحياناً يحملها على كتفه ، ويُصلّى بها ، فإذا سجدَ وضعها حتى يقضى من سجوده ، ثم يعود فيحملها ...

رُوى عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت : « إنَّ رَسُول الله ﷺ أهديت إليه هدية فيها قلادة من جزع ، فقال : لأدفعنها إلى أحب أهلى إلىّ ، فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة !...

لكن الرسول ﷺ دعا (أُمامة) بنت زينب فعلقها فى عنقها » .

وفى خلافة أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- فى ذى الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة ، لحق أبو العاص بربه ، وكان قد أوصى بابنته أُمامة إلى ابن خاله الزبير بن العوام أبى عبد الله ، فطلبها علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - منه بعد وفاة خالتها

فاطمة - رضى الله عنها - ، وظلت معه إلى أن لقى الله شهيداً ، فبكته بكاءً مرًّا ، وحزنت عليه حزناً شديداً سجلته الصحابية الجليلة (أُم الهيثم النخعية) فكان ممًّا قالته :

أشاب ذؤابتى وأذل ركبى (أُمامة) حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتها إليه فلما استيأست رفعت رهيناً

وكان الإمام علىّ - رضى الله عنه - قد قال لأُمامة قبيل وفاته : « ... فإن كان لك حاجة فى الرجال ، فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب » .

فلما قضى الإمام علىّ قال لها المغيرة - رضى الله عنهما - : « ... فلو جعلت أمرك إلىّ ؟ » .

أجابت ... : « نعم ... » .

فقال المغيرة لها : « قد تزوجتك ... » ، ثم توفيت ولم تنجب .

أما علىّ ابن السيدة زينب - رضى الله عنهما - فقد مات صغيراً .

وبموت علىّ وأُمامة انقطع عقب زينب بنت رسول الله ﷺ ، وصارت قصتها للسلوى والسلوان ؟



السَّيدَةُ رُقَيَّـة (رَضِى اللَّـهُ عَنهَا)
بنت مُحَمَّـد ﷺ

كان عثمان بن عفّان يمرّ أمام بيت خديجة بن خويلد - رضى الله عنهما - فأبصر صَبيَّة بيضاء ذات جمال ، فسأل عنها ، فقيل له : إنها رقية بنت محمد بن عبد الله ﷺ .

كان قد أُعجب بجمالها ، فعزم على أن يتقدم لخطبتها ، لكنه سأل نفسه : هل يتقدّم بنفسه إلى أبيها أم يُكلِّم صديقه وصديق أبيها أبا بكر بن أبى قحافة - رضى الله عنه - ، ليتولى أمر الخطبة عنه ؟

وبينما كان عثمان يفكر فى الوصول إلى محمد ﷺ ليخطب ابنته رقية ، كان هناك أمر يُدَبَّر لخطبة تلك الصبية وأُختها أُم كلثوم ، فقد ذهب عبد العُزَى بن عبد المطلب إلى أخيه أبى طالب وكان عبد العزى به حدة ، فقال يخاطب أخاه بصوت مرتفع :

ألسنا أولى ببناتنا من ابن الربيع ؟

ما الأمر يا عبد العُزَى ؟

نحن بنى هاشم أولى ببنات محمد بن عبد الله ﷺ .

أجل نحن أولى ، ولكن أرجو أن تفصح عما تريد يا عبد العُزَى .

رأيت أن يخطب ولدىّ عتبة وعتيبة ابنتى محمد ابن أخى عبد الله رقية وأُم كلثوم .

الأمر سهل ومجاب ، ولكن لقد قلت لك مراراً : لا تدع الحدة تستولى عليك يا أخى فى أحاديثك دائماً .

لقد تركت لك الأمر ، لتخبر ابن أخيك محمد ﷺ بما قد عزمنا عليه .

★ ★ ★

ذهب أبو طالب إلى ابن أخيه محمد ﷺ ، وعرض عليه رغبة عمه عبد العزى فى الزواج لولديه من ابنتيه .

رحب محمد ﷺ بلقاء عمه ومن معه ، ووافق على ما يراه عمه ، حتى إذا جاء الغد ، امتلأت الدار بالأهل والأقارب ، ووجدوا من لقاء محمد ﷺ كل ترحيب وفرح وسرور ... ثم تكلم أبو طالب ، فكان ممَّا قاله : « لقد جئناك - يا محمد - نخطب ابنتينا رقية وأُم كلثوم إلى ابنى عمك عبد العزى ، وما أراك تضن بهما عليه ... » .

رحب محمد ﷺ بما قاله عمه ، ورحب بعمه عبد العزى ، ثم استأذن فى الدخول إلى أهل بيته ليخبر خديجة زوجه (رضى الله عنها) ، فوجد عندها أُم جميل زوجة عمه عبد العُزَى فرحب بها ، وكانت قد أطلعت خديجة على ما عزمت عليه من الخِطْبَة ، وأظهرت سرورها وسعادتها بالتقرب أكثر بهذه المصاهرة .

رجع محمد ﷺ إلى مجلس أعمامه ، وكان عمه عبد العُزَى سعيداً بموافقة محمد ﷺ على الخِطْبَة ، فصافح محمداً ﷺ ، ثم قال : يا بنى لا أنس يوم أن بشرتنى جاريتى (ثويبة) بمولدك بعد

أن مات أخي عبد الله أن أخذتنى نوبة كبيرة من الفرح والسرور ، فأعتقتها ؛ لأنها كانت أول من حمل إليّ تلك البُشْرى السعيدة .

ثم قدم عبد العزى ولديه عتبة وعتيبة إلى محمد ﷺ قائلًا : إنهما فتيان من فتيان بنى هاشم ففيهما الأصل والحسب من جهة الأب ، وأيضاً فيهما الأصل والحسب من جهة الأم ، فأُمهما أُم جميل بنت حرب بن أُمية بن عبد شمس ، وبهذا تمت الخِطْبَة .



علم عثمان بما كان من موافقة محمد بن عبد الله ﷺ على زواج ابنته رقية من ابن عمه عبد العزى ، فتأسف وحزن ، إذ لم يكن هو زوجها ، ودخل على أهله مهموماً ، فوجد عند أهله خالته سعدية بنت كريز ، وكانت كاهنة ، فبشرته بزواجه من رقية .

قال عثمان : فعجبت من أمرها حيث تبشر بالمرأة وقد تزوجت بغيرى ؟ ، فقلت : أيا خالة ما تقولين ؟

قالت : يا عثمان لك الجاه ، ولى الشأن هذا النَّبيّ معه البُرهَان أرسلهُ بحقه الدَّيّان ، وجاءه التَّنزيل والفُرقَان ، فاتبعهُ لا تغتالك الأوْثَان !!

قال عثمان : إنك لتذكرين أمراً ما وقع ببلدنا .

قالت : محمد بن عبد الله رسول من عند الله بتنزيل الله ، يدعو إلى الله ، ثم قالت : « مصباحه مصباح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ، وقرنه نطاح ، ذلت له النطاح ، ما ينفع الصياح لو دفع الدياح ، وسلت الصفاح ، ومدت الرياح » .



لا ننكر ما قالته سعدية بنت كريز خالة عثمان بن عفّان (رضى الله عنه) ، فكان ما قالته إرهاصاً بدنو رسالة محمد بن عبد الله ﷺ ، وكان قد قرب نزول الوحى ، وبالرغم من أن محمداً ﷺ كان مشغولًا بهذا الأمر فقد وافق على زواج ابنتيه .

ولم تمض إلّا أيام قلائل حتى نزل الوحى على رسول الله ﷺ ، وعرف المقرّبون بأمر الرّسالة وصاحبها والدعوة إليها ، وبدت الحقيقة واضحة ، وعلم الناس بها ، فمنهم من أسرع إلى الاستجابة والتصديق والإيمان ، وكان من الذين صدقوا وآمنوا وأخلصوا للدعوة أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - .

يقول عثمان بن عفان (رضى الله عنه) : لقد شغلنى ما قالته لى خالتى ، فانطلقت مفكراً ، فلقينى أبو بكر ، فأخبرته بما قالته خالتى ، فقال : ويحك يا عثمان ، إنك رجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ، ما هذه الأصنام التى يعبدها قومك ، أليست من الحجارة ، صمٌّ لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ؟

قال عثمان (رضى الله عنه) : بلى والله ، إنها لكذلك !

قال أبو بكر (رضى الله عنه) : والله لقد صدقتك خالتك هذا رسول الله محمد ابن عبد الله ﷺ قد بعثه الله إلى خلقه برسالته ، هل لك - يا عثمان - أن تأتيه ؟

فاجتمعنا برسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « يا عثمان ! أجب الله إلى حقه ؛ فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه » .

فقال عثمان (رضى الله عنه) : فوالله ما تمالكت نفسى مُنذ سَمعتُ رَسُول الله ﷺ أَنْ أَسْلَمْت ، وشَهِدْت أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله ،

وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عبدهُ وَرَسُولُه ، وأَنهُ صادق فيما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

كانت الدَّعوَة فى أول أمرها سرِّية ، لا تظهر فى مجامع قريش العامة خَوْفاً من تَعصُّب قريش لآلهتها ، فمن أرادَ العبادة والصَّلاة ذهب إلى شعاب مكة ، يعبد الله ويُصلِّى مستخفياً ، ومع هذا الاستخفاء لم يسلَم المسلمون من إيذاء المشركين ، ولامن تنكرهم لهم ، والعيب عليهم ، وكان المسلمون أحياناً يقابلون الشِّدة بالشدة ، فقد ضرب سعد بن أبى وقّاص (رضى الله عنه) رجلًا من المشركين بلحى بعير فَشَجّه ، وكان أول دم أهريق فى الإسلام .

ولم يكن أهل مكة يعبأون بالرسول ﷺ وما يدعو إليه ، وظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قس ابن ساعدة ، وورقة بن نوفل وغيرهما ، وأن الناس عائدون لا محالة إلى دين آبائهم وأجدادهم ، وستكون أصنامهم آخر الأمر صاحبة الغلبة .

مكث المسلمون على هذه السِّرِّيَة حتى نَزَلَتْ الأوامر الإلٰهية تترى تأمرهُ ﷺ أن يظهر الرِّسالة ، وأن يُبَلِّغ القوم بما يجب عليهم تجاه هذه الرسالة ، ولا يخاف منهم ، ولا يكتم عنهم شيئاً فى واقع الأمر وحقيقته ، وأن ما يصيبه من أذى ما هو إلّا رفع لمكانته ومنزلته عند رب العالمين :

﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ

فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[1] .

وقد أمره الله سبحانه وتعالى بالجَهْر بالدَّعوة ، ولا يلتفت إلى ما يفعله المشركون ولا يعبأ بما يقولون :

﴿ وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

لقد قابل القوم ما دعا إليه رسول الله ﷺ بالسخرية والاستهزاء فى مجالسهم .

ثم تلى الأمر بالإعلان ، إنذار الأهل والأقارب وتخويفهم من عذاب الله الشديد ، وما عليه إلَّا أن يقول لهم ذلك ، ويبرأ من قولهم وعملهم ، فالله ناصره ومؤيده ، لقد نزل عليه ﷺ قول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

لقد أصبحت مكة كلها تعرف أمر هـذا الدين ، وتعرف جيداً ما يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ ، وتعرف أصحابه الذين

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٦٧) . (٢) سورة الحجر ، الآيات (٨٩ - ٩٦) .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات (٢١٤ - ٢١٦) .

اتبعوه ، وآمنوا به ، فليس فى مكة بيت إلّا ويتحدث أهله عن الدعوة الجديدة .

ثم إن رسول الله ﷺ قام على الصَّفَا فعَلَا أعلاها حجراً ، ثم نادى : يا صباحاه ...

فقال القوم : من هذا ؟ ...

وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولًا لينظر ما هو ... فجاء عبد العُزَى وقريش فاجتمعوا إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ » .

قالوا : ما جربنا عليك كذباً ...

فقال ﷺ : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس عم رسول الله أنقذ نفسك من النار ، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً ، أيا صفية عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد أنقذا أنفسكما من النار ، فإنى لا أملك لكما من الله شيئاً ، غير أن لكما رحماً سأبلها ببلاها ، إنى لكم نذير بين يدى عذاب شديد » .

فقال عبد العُزَى : تبًا لك سائر اليوم ... ألهذا جمعتنا ؟

ثم قال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب إنى والله ما أعلم شابًا من العرب جاء قومه بأفضل ممَّا جئتكم به ، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة ، ثم انصرف عبد العُزَى ومعه رجال من قريش » [1] .

---

(١) من أراد المزيد فليرجع إلى سبيل الهدى والرشاد (ج ٢ ص ٤٣٣) ، وأنساب الأشراف ، للبلاذرى (١/١٨) وما بعدها ، وصحيح البخارى كتاب التفسير (سورة المسد) ، وصحيح مسلم كتاب الفتن رقم (٩١) ، ومسند أحمد (٣/٣٤ ، ٩٧) .

ما رزئت هذه الدعوة بإنسان ملأه الشر والحقد أشد من عبد العُزَى بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وبإنسان آخر هى زوجة عبد العُزَى (أُم جميل) أُخت أبى سفيان بن حرب ، فالحقد والحسد اللّذان ملآ صدرهما على السيدة خديجة وزوجها ﷺ لم يكن وليد بعثة رسول الله ﷺ ولا دعوته إلى الله وحده .

ثم حدثهما العقل الباطن أن يختارا لابنيهما أحسن بنتين فى قريش ، فلم يجدا خيراً من بنتى محمد ﷺ وخديجة ، رقية وأُم كلثوم (رضى الله عنهن) ، ثم انتقلت البنتان إلى بيت ولديهما عتبة وعتيبة اللذين يعيشان مع والديهما .

لقد كان المفروض ، وقد دعا محمد ﷺ إلى توحيد الله أن يكون بيت عبد العُزَى على الحياد إن لم يكن من المجيبين لما يدعو إليه ابن أخيه.وصهره ، فإن كان يعز عليه ترك الأصنام وعبادتها وتأليهها فما عليه إلّا أن يفعل مثل ما فعله أخوته من البقاء على دينهم أو مناصرة ابن أخيهم ، أو الالتزام بالصمت وعدم التعرض له .

وهذا ما لم يحدث من العم عبد العُزَى ، فقد نسى أو تناسى أن ابنتى محمد ﷺ تعيشان معه ، وأن ما يقوله هو وزوجته لا شك يغضب البنتين ويسئ إليهما .



لم يقتصر عبد العُزَى وأُم جميل على مجابهة الرسول ﷺ فى وجهه ، والإساءة إليه بالكلمات النابية ، عندما أعلن أنه النَّبىّ المرسل من الله عن دعوته ، بل لقد سلكا طريقاً لم يسلكه أحد من قريش ، فلم نر رجلًا وزوجته يتفقان على النَّيْل من رسول الله ﷺ ،

حتى أبو جهل ، فلم نسمع أن زوجته مثلًا اشتركت معه اشتراكاً فعليًا لتنال من محمد ﷺ ، أو لتسئ إليه فى الطريق .

فعبد العُزَى يروى لامرأته ما يحصل منه لمحمد ﷺ ، ويؤكد لها موقفه العدائى منه ، ويذكر لها ساخراً ردوده اللاذعة عليه ، وتسفيه كل ما يقوله للناس ، وأُم جميل بدورها تشاركه سخريته واستهزاءه ، بل لقد كانت تدور فى بيوت قريش ، تنال من محمد ﷺ ، وتود أن تمسك ولو بخيط لتنال من السيدة خديجة - رضى الله عنها - ، ولكنها لا تدرى ما تقول عنها ؛ لأنها لم تشترك معها فى أى حديث ، أو ترد عليها إساءتها بإساءة أو تعتب عليها فتعيد عليها ما قالته أو فعلته فى ابن أخى زوجها محمد ﷺ باعتبارها أُمًّا لعتبة وعتيبة زوجى بنتيها ، أو الإساءات التى كانت تصدر منها نحو رقية وأُم كلثوم (رضى الله عنهما) ، وكانت أُم جميل إذا أَجْرَت حديثاً مع السيدة خديجة (رضى الله عنها) فى موضوع مثير ، انتقلت بها الطاهرة - رضى الله عنها - إلى حديث بعيد بلباقتها وذكائها .



لكن الله - عَزَّ وَجَلَّ - لم يترك عبد العزى ولا أُم جميل زوجه ليقولا ما يريدان قوله من غير أن يكونا لهما وازع من نفسيهما ، فقد رد على عبد العزى فى الوقت المناسب بما يقطع لسانه هو وأُم جميل ، ويجعلهما أضحوكة بين الرجال والنساء والصبية وعبيد قريش ، فقد أنزل الله - عَزَّ وَجَلَّ - بشأنهما قرآناً يتلى فى أنحاء الجزيرة لينذر به الناس ، فيرددوه على الأسماع .

فحينما دعا الرسول ﷺ الناس إلى الإيمان بالله وجمعهم ليستمعوا إليه لم يتكلم واحد منهم بكلمة سوء ، بل لقد سمعوا ، ثم أرادوا الانصراف ، ولكن صوتاً يخرج من بين الجمع ليقول متطاولاً على رسول الله ﷺ وهو ابن أخيه : (تبًّا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟!) .

لقد رد عليه المولى سبحانه وتعالى فنزل قوله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [1] .

لم تكد السورة تنزل على رسول الله ﷺ حتى حفظها المسلمون ، وراحوا يرددونها ، ووصلت إلى أسماع المشركين فرددوها وأوصلها غير واحد إلى أُم جميل حمالة الحطب ، وإلى زوجها أبى لهب ، وكان كلما قابل واحد الآخر قال له : هل سمعت ما قاله محمد فى عبد العزى وأُم جميل ؟ ويتلو عليه السورة .

لقد جن جنون أبى لهب وحمالة الحطب ، فقد صارا أمثولة فى المجتمع وفى البيوت ، وأصبحت هذه السورة حديث الناس ، وهم بين المشفق واللائم عليه لتجاوزه الحد مع ابن أخيه ، والشامت فيه لما يعرفون عنه من سوء خلقه .

لقد فرح المسلمون فرحاً شديداً ، وكان كلما قابل أحدهم أخاه المسلم بدأه بالسلام ، ثم تلا عليه سورة (المَسَد) بين السرور

---

(١) سورة المسد ، الآيات (١ – ٥) .

بينها وبينه حجاباً ، فلم تره وهو أمامها ، وقد جاءت لتضربه بما فى يدها ، لتخفف عن نفسها ما تحمله له من الحقد والبغض : ﴿ ... فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

لقد أحزن السيدة خديجة - رضى الله عنها - ما بدر من أبى لهب وزوجته حمالة الحطب ، وزاد من آلامها ما قاله عتيبة بن أبى لهب ، ولكن حينما أخبرها النّبىّ ﷺ بدعائه عليه أيقنت أن الله سينتقم سريعاً من هذا المتطاول .

لقد خرج عتيبة مع والده بتجارة إلى الشام فى جماعة من قريش ، فنزلوا منزلًا أشرف عليهم راهب من دير ، وقال لهم : إن هذه الأرض مسبعة .

تذكر عتيبة دعاء النّبىّ ﷺ ، وذكّر أباه بذلك ، فقال أبو لهب لأصحابه : « أعينونا يا معشر قريش هذه الليلة ، فإنى أخاف على ابنى دعوة محمد ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، ثم افرشوا لابنى ، وافرشوا حوله ، ... ففعل القوم ، وجمعوا جمالهم وأناخوا ، وجعلوا عتيبة وسط الرقعة ، وأحدقوا ، فلما ناموا جاء أسد يتشَمَّم وجُوه القوم ، فلما خلص إلى عتيبة افترسه بين الناس ، وقطع رأسه ، فلما انتبهوا ، قال أبو لهب : قد علمت - والله - ما كان لينفلت من دعوة محمد .

لم تشتك إحدى البنتين إلى أبيها أو أُمها ، لكنهما حمدا الله إذ نَجَّاهُمَا من مكَايد زوجة أبى لهب ، فقد كانتا تقابلان ما يلقيان بالصَّبر والتَّحمل ، لأنهما لم يتعودَا على مثل هذه المعاملة .

---

(١) سورة يوسف ، الآية (٦٤) .

رجعتا وكانت الدعوة قد انتشرت فى مكة ، وقصص الإساءة والعداء يرددها القلة من المسلمين الذين كثيراً ما كانوا يأتون إلى بيت محمد ﷺ للاستزادة ممَّا يأتى به الوحى .

فَكَّر عثمان ، وهو واحد من الذين يأتون إلى بيت محمد ﷺ ، وهو من علية القوم وأحد الذين ينتمون إلى الجد عبد شمس إنه عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أُمية بن عبد شمس ، يلتقى مع الرسول ﷺ من جهة الأب عند عبد مناف بن قصى ، ومن ناحية الأُم عند عبد المطلب بن هاشم ، لأن جَدة عثمان لأُمه هى البيضاء بنت حكيم بن عبد المطلب .

تقدم عثمان إلى رسول الله ﷺ يطلب منه يد ابنته (رقية) فقبل ودعا لهما بالقبول والبركة من الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وفرحت السيدة خديجة ورأت أن هذا من توفيق الله سبحانه وتعالى .

واحتفلت جماعة المسلمين بهذا الزَّواج ، فَذُبحَتْ الذَّبائح ، وأَنْشَد الجمْع ما تردد على لسان الشَّاعر من قوله :

أحسن زوج رآه إنسان   رقية وزوجها عثمان

كان عثمان مبارك التجارة كثير الأموال ميمون الطلعة ، على كثير من السماحة والخُلُق ، يشهد له بذلك كل مجتمعات مكة ، لكنه لم يسلم من إيذاء قريش ، فقد أصابه ما أصاب أُولئك الذين تركوا عبادة الأوثان ، ولجئوا إلى عبادة الرحمن ، واتبعوا ما يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ .

بدأت قريش فى إيذائه بالكلمة النابية ، ومقاطعة تجارته ، ومخاصمة قبيلته له ، وإظهار البُغْض والكُره له ، وضمه إلى أُولئك

الذين اتبعوا الدين الجديد وتعاونوا مع محمد ﷺ على سب آلهتهم ، والسخرية والاستهزاء بهم .

اجتمعت الفئة المؤمنة مع رسول الله ﷺ وقد كثر الإيذاء ، والحبس والضرب لكثير منهم ، وكان رأى البعض مقابلة الإساءة بالإساءة ، والضرب بالضرب ، ولكن الأغلبية رأت أن هذا لا يفيد ما دام الأعداء كثيرين والمسلمون لا يزالون قلة .

وانتظر الجميع ما يشير به رسول الله ﷺ فكان مما قاله : إنه لا يقدر أن يمنعهم ولكنه يشير عليهم بالخروج إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه .

كان عثمان بن عفّان رضى الله عنه أول الموافقين على الهجرة إلى الحبشة ، وكانت السيدة (رقية) (رضى الله عنها) أول الموافقات على أن تصحب زوجها فى هجرته ، والغريب أن السيدة رقية (رضى الله عنها) لم تغادر مكة فى أول حياتها ، ولم يكن لها طاقة على أن تغادر بيتها ، لكنها حبًّا فى مرافقة زوجها والتضحية معه فى الغربة وافقت على الهجرة ، ولم يكن للسيدة خديجة (رضى الله عنها) طاقة على بُعْد رقية - رضى الله عنها - لكنها تحملت ذلك فى سبيل أن تبقى رقية (رضى الله عنها) فى كنف زوجها .

لقد كانت سعيدة وهى مع زوجها فى تلك الرحلة الطويلة ، ولم يكن أصحاب الرحلة إلّا عدد قليل ، فقد بلغوا عشرة ، فيهم من آل عثمان : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة أخو هند زوجة أبى سفيان وزوجته سهلة بنت سهيل العامرية (رضى الله عنهم) ...

وكان مع رقية (رضى الله عنها) : ابن خالها أخو أُمها الزبير ابن العوام ، ومصعب ابن عمير بن هاشم ، وغيرهم من الأهل والأقارب (رضى الله عنهم) .

★ ★ ★

وصل ركب الإيمان إلى أرض الحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث رسول الله ﷺ ، فوجدوا الأمن والأمان وحرية العبادة لله وحده ، وشعروا بالطمأنينة ، فراح شعراؤهم ينشدون الأشعار ، ويرددونها فى فرح وحبور، حتى انتقلت من أرض الحبشة إلى مكة المكرمة ، وكان ممَّا وصل إلى الأسماع فى مجتمع قريش قول عبد الله بن الحارث بن سهم قصيدته التى يقول فيها :

يا راكبا بَلِّغَنْ عَنِّى مُغَلْغَلَةً[1]	مَنْ كانَ يَرجُو بلَاغ الله والدِّين
كلّ امرىء من عباد الله مُضطهد	ببطْنِ مكَّة مَقْهُور ومَفْتُون
إنَّا وَجَدنَا بلَاد الله وَاسعَة	تُنْجِى مِنَ الذُّلِّ والمخزَاة والهون
فَلَا تُقيمُوا عَلَى ذُلّ الحَيَاة وخز	ى فى المَمَات وعيب غَير مأْمُون
إنَّا تبعنا رَسُول الله واطرحُوا	قَول النَّبِىّ وعَالُوا فى الموازين[2]

وكان هذا ممَّا حث المسلمين على الهجرة إلى الحبشة زمراً زمراً بعد الجماعة الأُولى حتى وصل العدد إلى نحو من ثمانين ، منهم جعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عُميس (رضى الله عنهما) .

★ ★ ★

ثم إنه وصل إلى علم المهاجرين بالحبشة أن الوليد بن المغيرة ،

---

(١) **المغلغلة** : الرسالة ترسل من بلد إلى بلد .

(٢) **عال** : خان ، والأبيات فى السيرة النبوية ، لابن هشام (ج ١ ص ٣٢٠) .

وأبا أحيحة أسلما ، وسجدا خلف النبى ﷺ ، فقالوا : فمن بقى بمكة إذا أسلم هؤلاء ؟

وقالوا : عشائرنا أحب إلينا !!

فخرجوا راجعين حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار ، لقوا ركباً من كنانة فسألوهم عن قريش ، وعن حالهم ؟

فقال الركب : ما يزال محمد يشتم آلهتهم ، ويعودون له بالشر ، وقد تركناهم على ذلك .

فكر القوم فى الرجوع ثانية إلى الحبشة ، ثم قالوا : فلندخل فننظر ما فيه من قريش ، ويحدث عهداً من أراد بأهله ، ثم يرجع .

كان من الذين رجعوا إلى مكة السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ ، وزوجها عثمان بن عفّان (رضى الله عنهما) ، وكان عدد الذين قدموا مكة من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلًا .

فرحت السيدة خديجة (رضى الله عنها) برؤية رقية وعثمان (رضى الله عنهما) ، وظل الجميع بمكة ، حتى أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالخروج إلى الحبشة مرة ثانية ، فخرج من خرج وكان معهم السيدة رقية وزوجها عثمان بن عفّان (رضى الله عنهما) .

كان خروجهم فى هذه المرة أعظم مشقة ، فقد لقوا من قريش تعنيفاً شديداً ، ونالوهم بالأذى ، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حُسن جواره لهم .

وعندما أراد عثمان بن عفّان (رضى الله عنه) الهجرة الثانية مع زوجته رقية (رضى الله عنها) قال : يا رسول الله فهجرتنا

الأُولى وهذه الآخرة ولست معنا ؟ فقال ﷺ : « أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإليّ لكم هاتان الهجرتان جميعاً » ، قال عثمان : فحسبنا يا رسول الله [1] .

وصلت السيدة رقية مع زوجها (رضى الله عنهما) إلى الحبشة فى هجرتهم الثانية وازدادوا أمناً وسكينة ، فلم يؤذهم أحد ، ولم يسمعوا ما يعكر صفوهم ، ولم يروا من النجاشى إلَّا خيراً .

ولكن ذلك لم يرضى مشركى مكة فأرسلوا إلى النجاشى وبطارقته الهدايا لعلها تؤثر على مقام المسلمين هناك ، ولكن ذلك لم يُجْدِ نفعاً ، فظل المسلمون على حالتهم من حرية العبادة وإقامة الشعائر إلى أن علموا بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، فمن المسلمين من رجع إلى مكة ، ومنهم من ذهب إلى المدينة .

أما رقية وزوجها عثمان (رضى الله عنهما) فقد رجعا إلى مكة ، وذهبت رقية (رضى الله عنها) إلى بيت أبيها ، فلم تجد فيه إلَّا أُختيها أُم كلثوم وفاطمة (رضى الله عنهما) ، أما الأُم فقد لاقت ربها ، وأما الأب فقد هاجر إلى يثرب ؛ وكان لابد من اللحاق به .

لحقت رقية وزوجها عثمان (رضى الله عنهما) بالنبى ﷺ بيثرب ، وفى دار الهجرة هذه وضعت مولودها وأسمته عبد الله .

لقد مرّت برُقَيَّة (رضى الله عنها) أحداث جسام تحملت فيها الكثير من العذاب والآلام ، فها هى تعود إلى بيت أبيها وأُمّها من بيت أبى لهب وحمَّالة الحطَب بعد اضطهاد لعين ، ولم تنعم طويلًا بزواجها من عثمان بن عفّان (رضى الله عنه) ، فيهاجرا إلى الحبشة

---

(١) سبيل الهدى والرشاد (ج ٢ ص ٥١٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ١ ص ٢١٧) طبعة بيروت .

مع طول الشقاء وعناء السفر والوحشة وترك الأب والأُم والأَخوات فيصيبها ما يصيبها فتفقد جنينها الأول ، وتعانى ما تعانى من طرحها لجنينها فى الحبشة ، ثم ترجع من الحبشة إلى مكة فلا تجد فيها إلَّا أخواتها ، أما الأم فقد رحلت إلى الدار الآخرة ، وأما الأب فقد ترك بلده وهاجر هو الآخر إلى يثرب .

ولم تطل إقامتها بمكة ، فقد لحقت بأبيها ، وكان فى زوجها عثمان (رضى الله عنه) الأُسوة والتأسى ... ثم تضع طفلها عبد الله ، ولم تطل فرحتها به فقد نقره ديك فى عينه فأرداه قتيلًا .

ثم تمرض مرض الموت ، فيترك عثمان (رضى الله عنه) من أجلها الجهاد فى معركة (بَدْر) ، ويبقى بجوارها يمرضها ويسهر على راحتها ولكنها لم تسترح ، فلقد غابت عن الوجود ، فى الوقت الذى عاد فيه المسلمون بالفرحة بأن نصرهم الله على أعدائهم فى غَزْوَة (بَدْر) فاختلَطَتْ الفَرحة بالبكاء على فقد رُقية - رضى الله عنها - ، فقد لفظت أنفاسها الأخيرة .

وقد أثار هذا الموقف أشجان النّسوة ، فاستسلمن للبكاء وأحياناً برفع الصوت بالصّراخ ممَّا جعل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يزجرهن فى شدة وقسوة ولكن الرسول ﷺ منعه قائلًا : « مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان »[1] .

وصلَّى رسول الله ﷺ على ابنته ، وخرجت المدينة كلها لتوارى جثمان ذات الهجرتين الثرى الطيب لتكون مثلًا أعلى للصبر والاحتمال فى الحياة المملوءة بالمآسى والآلام رحمها الله ورضى عنها .

(١) طبقات ابن سعد (٨ : ٢٤) .

السَّيدَةُ أُمّ كلثُوم (رَضِى اللَّـهُ عَنهَا)

بنت مُحَمَّد ﷺ

كانت رقية (رضى الله عنها) تكبر أُم كلثوم (رضى الله عنها) بسنة أو أكثر ، فقد فتحت أُم كلثوم (رضى الله عنها) عينيها ، فوجدتها تمشى وتجرى وتتحرك وتتكلم ، فراحت تتبعها بالتقليد ، وتلازمها بالفعال ، تعمل ما تعمل ، وتتحرك حيث تتحرك ، وتتكلم بالكلمات التى تنطق بها ، تناجيها وتتودد إليها ، وتقترب منها إذا خاصمتها ، ثم بلغتا من العمر ما بلغتا ، بلغت أُم كلثوم العاشرة أو أقل منها بقليل ، وتجاوزتها رقية ... ووجدت أُم كلثوم أُختها رقية تسحبها من يدها ، وتنتقل بها إلى بيت جديد لم تدخله من قبل ، ولما تساءلت قيل لها : هذا هو البيت الذى حدثك عنه والدك ، وأخذ رأيك فوافقت عليه ، إنه بيت عتيبة ، والعم عبد العزى ، وزوجة العم أُم جميل .

جلست بجوار أُختها ، لا تدرى ماذا تعمل ، ثم أشارت إليها أُختها إلى المكان الذى ستنام فيه ...

استمعت أُم كلثوم (رضى الله عنها) إلى صوت أُم جميل تدعوها إلى ترك الخجل ، وتشجعها وتطلب منها أن تطمئن ، فهى فى بيتها ومع أهلها وأُختها .

لم تدم حياة الهدوء طويلًا ، فكانت تسمع اسم أبيها على لسان العم عبد العزى وزوجة العم أُم جميل لكنها لم تتحقق من

الذى يقولانه ، لأنه كان بالهمس وبصوت خافت ، لجأت إلى أُختها رقية تحكى لها ما سمعت من الهمس الذى لا يكاد يفصح عنه ، فأخبرتها أنها تسمع كلاماً لا يكاد يبين المقصود منه ، لكنهما صمتا وصبرا حتى تنجلى الأمور .

أرسلت السيدة خديجة إلى ابنتيها رقية وأُم كلثوم (رضى الله عنهن) بأن يحضرا إليها وهناك وجدا زينب والصغيرة فاطمة ، أشارت إليهن الوالدة العظيمة بأن يجلسن ، ثم بدأت الحديث معهن ، فقالت : « إنَّ والدكنّ قد أَرسلهُ الله إلى النَّاس جميعاً بالتَّوحيد وعبادَة الله وحدهُ لا شَريكَ له ، وأنهُ رَسُول الله ﷺ ، وطلبت منهن النُّطق بالشَّهَادتين فنطقنَ بها ... ثم طلبت إليهن إخفاء هذا الأمر عن الناس جميعاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً » .

رجعت أُم كلثوم ورقية (رضى الله عنهما) إلى البيت الذى يعيشان فيه ، وبدأت الأُمور تتكشف ، فعرفتا أن بيت عبد العزى لم يؤمن بما جاء به والدهما ، وأنهما يعاديان الأب ، بل والأُم خديجة (رضى الله عنها) وإن لم يكن لها من الأمر شيئاً ، ثم بدأ عبد العزى وأُم جميل يجهران بهذه العداوة وأحياناً يذكران محمداً ﷺ بما ليس فيه ، ثم سمعا أن أُم جميل تصف النبى ﷺ بصفات سيئة .

ثم جاءتهما من تسمعهما ما نزل فى عبد العزى وأُم جميل من القرآن وتسمية عبد العزى بأبى لهب ، وأُم جميل بحمالة الحطب .

تأزمت الأُمور وشعرتا بأنهما سيعودان إلى بيت أبيهما ، فقد صارا لا يطيقهما أبو لهب وحمالة الحطب ، ولا عتبة ولا عتيبة ، ثم

ناداهما عتبة وعتيبة وطلبا منهما أن يذهبا إلى بيت محمد ﷺ وخديجة (رضى الله عنها) .

كانت أُم كلثوم (رضى الله عنها) سعيدة بالعودة إلى بيت أبيها ، فقد أصبحت لا تطيق الحياة فى بيت أبى لهب ، فرحت بلقائها مع فاطمة ، وبلقاء فاطمة لها ، ثم لم تلبث أن تزوجت رقية عثمان بن عفّان (رضى الله عنهما) ، ورأتهما وهما يستعدان للهجرة إلى الحبشة .

لقد ضاعفت مكة من عدائها للمسلمين ، فكثر التعذيب للمسلمين الضعفاء ، والإهانة والسب وأحياناً الضرب للأقوياء ، رأت الأب الكريم وهو يصبر على الإهانة ، فيرجع وقد صحبته فاطمة باكية حزينة ، لقد كانت تتقبل كل هذا ، ولا تملك إلا أن تدعو على أولئك الذين أهانوا والدها ، وألقوا التراب على رأسه وثوبه .

رأت أُم كلثوم (رضى الله عنها) القرشيين يدخلون دين الإسلام ، وكانت تفرح حينما يصل إلى علمها أن سيداً من سادة مكة أقبل على أبيها ينطق الشهادتين .

رأت عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب (رضى الله عنهما) ، وغيرهما وقد انضموا إلى صفوف المسلمين ، فكانت تحمد الله ، وتدعو أن يزيد العدد ، حتى تسلم مكة كلها .

حضرت أُم كلثوم (رضى الله عنها) مقاطعة مكة لأبيها وبنى هاشم ، فقد سجلوا مقاطعتهم للمسلمين فى وثيقة عُلِّقَتْ فى جوف الكعبة ، وخرجت أُم كلثوم (رضى الله عنها) مع أُسرتها إلى شعب أبى طالب ، وانحاز إليهم بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب إلَّا أبو لهب وولديه وأُمهما .

فأقاموا فى الحصار ثلاث سنوات لا يصل إليهم شىء من الطعام إلَّا سرًّا ...

وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً ، ولعلّ أبلغ صورة هى التى يصورها لنا سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه) بعد لعنة الحصار فقال : « لقد جُعْت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هو إلى الآن » .

لقد تحملت السيدة خديجة (رضى الله عنها) هذا العذاب أيضاً مع بنتيها أُم كلثوم وفاطمة (رضى الله عنهما) حبًّا وتضحية فى سبيل محبة الله ورسوله ﷺ إيماناً منها بأن الله سينصره وسيرعاه ويحرسه ، وقد زاد من رعايته وحفظه عمه أبو طالب بالرغم من أنه لم يسلم ، فكان وهو فى الشِّعب يأمر رسول الله ﷺ أن يأتى إلى فراشه كل ليلة حتى يراه ويطمئن عليه ، وحتى لا يصل إليه من يريد به شرًّا أو غائلة .

فإذا أراد الرسول ﷺ أن ينام لا يتركه ينام فى فراشه ، بل يأمر أبو طالب أحد أولاده أو إخوته أو بنى عمه أن ينام الرسول ﷺ مكانه ، وينام هو مكان الرسول ﷺ ، وقد يأمر الرسول ﷺ أن يأتى ليرقد فى فراشهم ، خوفاً من أن تمتد يد آثمة إليه [1].

وتنتهى هذه المقاطعة اللعينة ، والتى حضرتها مع الأهل والمسلمين أُم كلثوم (رضى الله عنها) ببركة والدتها المؤمنة الصابرة المحتسبة ، فقد كان بنو أسد يعرفون أن السيدة خديجة (رضى الله عنها) قد يؤذيها الجوع ، وهى التى تربت فى منابت العز والرفاهية ، فقد رتبوا

(١) السيرة النبوية ، لابن كثير (ج ٢ ص ٤٣) .

أُمورهم على أن يرسلوا إليها الكثير ممَّا تحتاج إليه ، فكان إذا جاء الليل ، ونام القوم ، أعدوا المتاع الذى يظنون أنها تحتاج إليه ، ووضعوه فوق راحلة يؤتى بها إلى باب الشِّعب [1] ، ثم تضرب لتدخل عند السيدة خديجة - رضى الله عنها - ، وما أظن أنها استأثرت وحدها بما تحمل الراحلة ، بل كانت كعهدها السابق يشاركها القريب والبعيد ، ولقد كان من فضل الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يكون للسيدة خديجة - رضى الله عنها - الفضل فى تمزيق الصحيفة ، وبسببها يوضع أول مسمار فى تحطيم هذه المقاطعة ، والقضاء على ما تآمر عليه القوم ...

خرج النبى ﷺ من الشِّعب وله تسع وأربعون سنة ، أما السيدة خديجة (رضى الله عنها) فقد خرجت معتمدة على كتف ابنتها أُم كلثوم (رضى الله عنها) ، فقد ألم بها مرض شديد فى أواخر الأيام وهى فى الشعب .

خرجت متثاقلة غير نشيطة نشاطها المعهود ، فلم تكن تستطيع أن تقضى كل حاجتها بنفسها ، فكانت أُم كلثوم (رضى الله عنها) تعاونها وتساعدها وتقدم إليها ما تحتاج إليه ، حتى إذا قربت النهاية ، وقفت أُم كلثوم (رضى الله عنها) مع أُختها الصغيرة فاطمة تبكى وتنتحب ، وقد اقترب الرسول ﷺ يهون عليها لقاء الله ، وهى تودع الحياة الدنيا ، فكان ممَّا قاله يخاطب به السيدة خديجة - رضى الله عنها - : « يا لكره ما أرى منك يا خديجة ، وقد جعل الله لى فى الكره خيراً كثيراً » [2] .

---

(١) إتحاف الورى بأخبار أم القرى (ج ١ ص ٢٧٣) .
(٢) المرجع السابق (ج ١ ص ٣٠٤) .

ثم أسلمت الروح ، وهى بين يدى رسول الله ﷺ .

بكت أُم كلثوم (رضى الله عنها) بقدر ما أطاقت من البكاء ، فقد التقى حزنها مع أُختها الصغيرة فاطمة (رضى الله عنها) ، وخلا البيت إلَّا منهما ومن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ... ثم إن الرسول ﷺ أراد أن يخفف عن أُم كلثوم وفاطمة (رضى الله عنهما) من متاعب الحياة ، فأتى بسودة بنت زمعة (رضى الله عنها) زوجة له لتكون معهما ، وتسهر على راحتهما ، فكانت نعم الزوجة والمرافقة لأُم كلثوم وفاطمة .

اشتد إيذاء المشركين للرسول ﷺ ، وخلت يد المعاونة والمساعدة بموت أبى طالب وخديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) إلَّا من المولى سبحانه وتعالى .

ثم أذن الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ بالهجرة إلى يثرب ، فودع أُم كلثوم وفاطمة (رضى الله عنهما) ، وبقى معهما وقتاً ليس بالقصير ، وأسرَّ إليهما بما عزم عليه من الهجرة ، ثم اتجه إلى بيت أبى بكر - رضى الله عنه - ، وقضى معه بعض الوقت ، ثم خرج الاثنان متجهين إلى يثرب ، ولم ينس أن يودع مكة وهى البلد الذى أخرجه أهلها منها بقوله ﷺ : « والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ، وإنك لأحب أرض الله إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما فارقتك »[1] .

مضى إلى الغار وترك ابنتيه وزوجته سودة وأُم أيمن (رضى الله عنهن) فى البيت تحرسهن عناية الله سبحانه وتعالى .

---

(١) الترمذى (٣٩٢٥) .

كانت زينب (رضى الله عنها) تود أُختها من وقت لآخر ، وكانت البنات فى قلق شديد على والدهن حتى جاءت الأخبار بوصول النَّبىّ ﷺ سالماً إلى يثرب .

ثم أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة (رضى الله عنه) إلى مكة ليصحب أُم كلثوم وفاطمة وأُم أيمن وزوجته سودة بنت زمعة (رضى الله عنهن) إلى يثرب .

ذهب الجميع إلى المكان الذى كان زيد ينتظر فيه ، واتجهوا جميعاً إلى الطريق الذى سيوصلهم إلى يثرب ، حيث يلتقون بالنبى والوالد ﷺ .

بدأت أُم كلثوم (رضى الله عنها) حياة جديدة فى (يثرب) ، فقد شهدت انتصارات غَزْوَة (بَدْر) ، وعودة النَّبىّ ﷺ والمسلمين ، وقد أخذوا بحقهم من اضطهاد المشركين منهم وانتقموا لأنفسهم من العذاب الذى لقوه فى مكة ، ولكن الفرحة لم تكتمل ، فقد شهدت مرض أُختها رقية ، فظلت بجانبها لتقضى لها بعض حوائجها ، وتشارك زوجها عثمان فى العناية بها .

وبعد مضى أكثر من سنتين ، بدأ تفكير النبى ﷺ فيمن يتزوج ابنته أُم كلثوم (رضى الله عنها) ، والمجتمع فى ذلك الوقت مجتمع تزويج ، وليس عيباً أن يلمّح إنسان لآخر ليتزوج أخته أو ابنته ، فقد حدث أن عمر بن الخطاب عرض على أبى بكر - رضى الله عنهما - ابنته ليتزوجها بعد موت زوجها حصن بن حذافة فسكت أبو بكر ، ولم يجبه .

فعرضها على عثمان بن عفّان - رضى الله عنه - فقال لعمر : ما أُريد أن أتزوج اليوم .

فغضب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) غضباً شديداً ، وذهب إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه موقف أبى بكر وموقف عثمان بن عفان (رضى الله عنهما) .

تلَطَّف النَّبىّ - عليه الصلاة والسلام - مع عمر (رضى الله عنه) وقال له : يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة ! ...

وانتظر الجميع ماذا يقصد بذلك النبى - عليه الصلاة والسلام - .

وإذا برسول الله ﷺ يختار حفصة (رضى الله عنها) لنفسه وكان صادقاً فيما قال ، فهو خير من أبى بكر ومن عثمان (رضى الله عنهما) .

وإذا بالرسول ﷺ يختار لعثمان من هى خير من حفصة (رضى الله عنها) وكانت أُم كلثوم (رضى الله عنها) .

ثم أرسل النبى ﷺ خادمته (أُمْ عياش) إلى ابنته أُم كلثوم (رضى الله عنها) ، وتم عقد زواجها من عثمان على مثل صداق رقية (رضى الله عنهما) .

وفى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة خرج المسلمون بقيادة الرسول ﷺ ، واتجهوا إلى مكة لقضاء العُمْرَة وليس معهم من السلاح إلَّا السيوف مغمدة ، وكان عددهم ما يقرب من ألف وخمسمائة من الصحابة ، ولكن قريشاً تصدّت للمسلمين ومنعتهم من دخول مكة .

فأرسل النبى ﷺ عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ، ليخبرهم

أنه لم يأت لقتالٍ ، وإنما جاء هو ومن معه لأداء العُمْرَة ، وأنهم لم يحملوا سلاحاً ، ولا ينوون قتالاً ولا حرباً .

ولكن قريشاً اعتقلَتْ عثمان (رضى الله عنه) ، ومنعته من العَودَة ، وأُشيعَ أن قريشاً قتلت عثمان (رضى الله عنه) ، فدبّ القلق فى نفُوس الجميع ، وفى قلب أُم كلثوم (رضى الله عنها) ، وانتابها حزن عميق فالمشركون طبعهم الغَدْر وليس عندهم ما يمنع من قتل عثمان (رضى الله عنه) ، ولما طالت غيبته أكدت ما سار بين المسلمين من ظنون بأنه قتل .

دعا النّبىّ ﷺ المسلمين إلى الاستعداد للقتال لغدرهم برجل أرسله إليهم مسالماً وليس مقاتلاً .

دعا النّبىّ ﷺ لبيعة الرضوان ، ضرب فيها بشماله على يمينه وقال : « إنه ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله ﷺ ... »[1] .

وخافت قريش مغبة فعلهم إن هم قتلوه .

وعاد عثمان (رضى الله عنه) إلى زوجه وأهله والمسلمين ، ولم يصب بأذى ، وكانت فرحة أُم كلثوم (رضى الله عنها) كبيرة بعودة زوجها سالماً معافى .

مضى عامان بعد صلح (الحُدَيْبِيَّة) ، وأدركت أُم كلثوم (رضى الله عنها) هذا الفتح العظيم ، ثم ودعت الدنيا هى الأخرى فى شهر شعبان سنة تسع من الهجرة من غير عقب ، ودُفنَتْ فى المدينة ، ووقف أبوها ﷺ دامع العين مثقل القلب بآلام تتابعت عليه ، لترفع من منزلته عند ربه ، رب العالمين .

---

(١) طبقات ابن سعد (٢ : ١ : ٧٠) .

السَّـيدَةُ فَاطِمَـة (رَضِى اللَّـهُ عَنهَا)
بنت مُحَمَّـد ﷺ

ولدت السيدة فاطمة فى عام له تاريخ يؤرخ له كالعام الذى ولد فيه رسول الله – عليه الصلاة والسلام – ، فلقد كان من عادة العرب أن يؤرخوا بالأحداث الجسام للعظيم من الأُمور ، أرخوا لمولد سيدنا محمد ﷺ بعام الفيل فى حادث سجله القرآن الكريم ليذكّر به العرب والمسلمين ، ويمنّ عليهم به كما جاء فى سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[1] .

فقد أراد أَبْرَهَة الأَشْرَم عامل النجاشى على اليمن أن يصرف الناس عن البيت الحرام بمكة ، فبنى بيتاً فى اليمن وزخرفه واعتنى به وجلب له فاخر الأثاث ، ولما رأى أن أهل اليمن لا يتجهون إليه ، لم يجد وسيلة إلّا أن يهدم البيت العتيق الذى بناه إبراهيم – عليه السلام – ، فتهيأ بجيش عظيم يتقدمه فيل كبير ، وكان غريباً على أهل مكة أن ينزل بساحتهم الفيل ، فلم يستطع أحد أن يقف أمامه وخذل الله الأعداء ، فأرسل عليهم جماعات من الطَّير تحمل الموت

---

(١) سورة الفيل ، الآيات (١ – ٥) .

فأهلكتهم ، وحفظ الله - سبحانه وتعالى - البيت من شرورهم ، فأرخوا لتاريخهم به .

كان ذلك عام ٥٧٠ م ، وبعد حوالى خمسة وثلاثين عاماً فى سنة ٦٠٥ م حصل أمر عظيم لم تعهده مكة من قبل ، فقد طغى على البيت الحرام سيل جارف انحدر من الجبال فصدّع بنيان الكعبة والبيت ، وأودى بالبنيان ، فأجمع أهل مكة أمرهم بعد خوف وتردد ، واتفقوا على البناء ، فبنوا الكعبة وارتفعوا بها ، ولما جاء وضْع الحجر اختلفوا فيمن يكون له شَرف حمله ووضعه فى مكانه ، وكادت تقوم بينهم حرب ضروس ، فقد تحالف لها بنو عبد الدار وبنو عدى ، واتفقوا على أن يحولوا بين أية قبيلة تحمل الحجر ويكون لها الشرف العظيم بوضعه فى مكانه ، وقرّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، وأدخلوا أيديهم فيه توكيداً لأيمانهم ، واستعدوا للقتال ، فلما رأى أبو أُمية بن المغيرة المخزومى ما صار إليه أمر القوم وكان من رؤسائهم مطاعاً بينهم قال لهم : « اجعلوا الحَكَم بينكم أوَّل من يدخل من باب الصَّفَا » ، راحوا يترقبون من سيكون أول الداخلين ، فلما رأوا محمداً أول من دخل من باب الصفا ، قالوا جميعاً بصوت واحد : « هذا الأمين رضينا بحكمه » .

قصوا عليه قصتهم ... وعرّفوه بأن ما يحكم به سيكون مانعاً لحرب ضروس قد تقع بينهم فتقضى على الأخضر واليابس ، ففكَّر مُحَمَّد ﷺ قليلًا ، ثم قالَ : « هلم إلىّ ثوباً » .

فلما أتوه بالثوب ، نظر بعضهم إلى بعض متسائلين ، وماذا سيفعل محمد بالثوب ؟

نشرةُ على الأرض ، ثم أخذ الحجر بيديه ، ووضعه فى وسط الثوب ، ثم نادى كبير كل قبيلة ، وطلب منهم بأن يأخذ كل كبير عن قبيلته بطرف من أطراف هذا الثوب ، وبهذا يكون الجميع قد اشتركوا فى حمل الحجر ، لوضعه فى مكانه ، فلم تختصّ قبيلة دون الأُخرى بشرف حمله ، حتى إذ قربوا من المكان الذى سيستقرّ الحجر فيه ، تناوله مُحَمَّد بيديه من فوق الثوب ووضعه فى موضعه .

سُرّ القوم بما قامَ به ابن عبد الله ﷺ ، ورأوا أن فعله هذا يدلّ على كثير من العقل والذكاء ، وأنه أَبْعَدَهُم عن الحرب والتفكير فيها ، فَكَبُر فى أعينهم ، ونال عندهم منزلة عظيمة ، فلقد قضى بذكائه وعبقريته على شبح الحرب ، ونزيف الدم الذى كاد يقضى على وحدة العرب واتحادهم ويورث العداوة والبغضاء ، والحقد الطويل أزماناً وأزماناً .

انتشر الخبر سريعاً فى أنحاء مكة ، وسرى إلى العرب فى كل مكان فى أرض الجزيرة ، فاستبشر به الناس ، وفرحوا بانتهاء المشكلة وسُرّوا بحكمة محمد ﷺ وسداد رأيه .

وجاء دور الشعر والشعراء ، وهم الذين يؤرخون للأحداث ، فيكون ذلك تسجيلًا لما حصل مع مضى الأيام ، فقد انطلقوا بفرحهم وسرورهم يصفون الحدث الكبير ، ويمدحون صاحب الموقف النبيل الذى وقفه معهم الأمين محمد بن عبد الله ﷺ برجاحة عقله ، وحسن تصرفه .

لقد أشاد أبو وهب المخزومى الشاعر المكى إلى قضية التحكيم فقال :

تشَاجَرتْ الأَحياء فى فَصْل خطة جَرتْ بينهم بالنّحس من بعد أَسْعَد
تلاقـوا بهَـا بالبغْـض بعـد مَـوَدَّة وأَوْقَـدُوا ناراً بينهُـم شَـرّ مـوقـد
فلَمَّـا رأينـا الأَمر قـد جَـدّ جـدّه ولم يبـقَ شىء غير سل المهنـد
رَضِينَا وقُلنَـا العَـدْل أَوَّل طَـالع يَجىء من البَطْحَاء عَنْ غير موعد
ففاجأنا هَـذَا الأَمـين مُحَمَّـد فَقُلنَـا رَضِينَا بالأَمـين مُحَمَّـد



عاد الأمين محمد بن عبد الله ﷺ إلى بيته حامداً شاكراً لله سبحانه وتعالى أن وفَّقهُ لحلّ قضية شغلت بال كبار القوم ، وكادت تقضى عليهم ، وما لبث أن تلقى نبأ مولد ابنته ، فتهلّل له ، وابتهج به ، ودَخلَ مُسْرعاً إلى زوجته الوفيّة باش الأسارير طلق المحيا فهنأها بسلامتها وبارك لها فى مولودتها .

نظرت إليه خديجة (رضى الله عنها) نظرة إشفاق ، وأرادت أن تقول شيئاً ... فقال لها محمد بن عبد الله ﷺ : لا تقولى شيئاً ، فالكل عندنا سواء ، لا فرق بين هذا وهذه ، فالمولى الذى يعطى يهب من يشاء ، ونحن راضون بما أعطى ، وإننى سعيد بها ، وسيكون فيها الخير والقبول ، ودعا لها بالبركة فيها وفى ذريتها ، وبشر أنه سيكون لها شأن عظيم ؛ لأنها ولدت فى يوم مبارك كريم ، أغمدت فيه سيوف الحرب بين القبائل ، وانقضت بينهم مشكلة كبيرة .

وأرخ لها بهذا اليوم العظيم وأسماها أبوها ﷺ « فاطمة » ولقبها بـ« الزهراء » .



قضت طفولتها الأُولى تنعم بين أبوين صالحين ، فكانت الابنة الرابعة بعد زينب ، ورقية ، وأُم كلثوم .

كانت شديدة الشبه بأبيها ، كانت تهتم بها أُختها الكبيرة زينب فكانت تحملها وتدللها ، وربما شاركتها أُختها رقية وأُم كلثوم ، كانت الأُمّ تفرح كثيراً بلقائها مع إخوتها الثلاثة حينما تراها تلعب معهن ، وتجرى وراءهن .

ولكن ذلك لم يدم طويلًا ، فقد تزوجت زينب ، وذهبت إلى بيت ابن خالتها أبى العاص ، ومن بعدها تزوجت رقية وأُم كلثوم (رضى الله عنهما) من ابنى عبد العزى بن عبد المطلب ففارقها الأُخوات الثلاثة ، وشعرت فاطمة بالوحدة ، فأسرعت إلى أُمّها خديجة (رضى الله عنها) ، تبثها أحزانها وشعورها ببعد الإخوة عنها ، راحت تحتضن أُمها وتبكى ، فلما سألتها أُمها عن سرّ بكائها ؟ قالت : لا تدعى أحداً ينتزعنى منك يا أُمّاه ومن أبى ، فلست أُطيق فراقكما ! .

ابتسمت الأُمّ الحنون فى رفق وحنان ، وضمتها إلى صدرها ، ثم قالت وهى تبتسم : لن تتركينا إلّا إذا أردت .

لقد خلا لها البيت ، وتعلّقت بأُمّها كثيراً ، ووزّعَتْ حبها بين أُم كريمة ، وأب أكرم ، ورأت مدى ما يتمتّع به الأبوان من الحنان الفَيّاض ، والخُلُق العظيم ، فتأثرت بهما تأثراً كبيراً ، وجعلت من أبيها المثل الأعلى والقدوة الحسنة فى جميع تصرفاتها .

نشأت نشأتها الأُولى مع صغرها على العفّة الكاملة ، وعزّة النّفْس ، وحُبّ الخير وعلى حُسن الخلق .

رأت أباها وهو يستعدّ للذّهاب إلى الجبل ، ورأت أُمَّها وقد اهتمت به ، فأعدّت له الذى سيأكله فى غيبته ، ورأتها وهى تُشير إلى أحد خدمها وهى تقول له : تتبعه من بعيد فلا يراك حتى إذا وصل إلى الغار ، فارقه ثم ارجع إلىّ لتخبرنى بحاله .

ثم رأته وقد عاد من الجبل من غار حراء ، وهو فى حالة غير طبيعية ... ثم رأته يتلو آيات لم تسمع بها من قبل ، سمعته وهو يتلو : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [1] .

ثم جاءه جبريل – عليه السلام – ، وأمره أن ينذر أقاربه ، فاستجابت السيدة خديجة (رضى الله عنها) ، ونادت على بناتها زينب ، ورقية ، وأُم كلثوم (رضى الله عنهن) ، وانضمت إليهم الصغيرة فاطمة (رضى الله عنها) ، ثم قالت الأُم البارة لهن : « إنَّ الله سُبحَانهُ وتَعالَى قد أرسل أباكُم بدين الإسلام ، وأمرهُ أن يدعو النَّاس إلى الإيمان به ، فيجب علينا أن نكون أوَّل المصدِّقين والمؤْمنين بما جاءَ به ، ونشهد أَن لَا إلٰهَ إلَّا الله ، وَأنَّ مُحَمداً رَسُول الله ﷺ » .

فآمَنّ به ، وصدقن بما جاء ، ورددن الشهادة ، ثم انصرفت كل واحدة إلى بيت زوجها ، وبقيت فاطمة لتدافع عنه .



لقد هجرت ملاعب الطّفولة ، وتَرفَّعت عن مُصَاحبة الصِّغار ، لتكون قريبة من أبيها ، فإذا كان فى البيت ، فإنها تكون قريبة ،

---

(١) سورة العلق ، الآيات (١ – ٥) .

منه ، تطيل النظر إليه ، ويهفو قلبها له ، وإذا خرج من البيت ، ليقابل الناس ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، أو ليطوف بالكعبة مشت وراءه بعيدة عنه تحرسه وترعاه وتدافع عنه ، وكان إذا ذهب إلى أندية القوم ، ليعرض على القوم التوحيد وترك عبادة الأصنام تسير خلفه ، وقد ترد على الذين يحاولون النيل منه .

مشى - عليه الصلاة والسلام - يوماً إلى الكعبة حتى استلم الركن ، فما أن رآه المشركون حتى وثبوا عليه وأحاطوا به وهم يقولون : أنت الذى تقول ما تهزأ به من آلهتنا ، وتسفه أحلامنا ، وتسخر من آبائنا !

فيقول لهم ﷺ : « أنا الذى يقول ذلك »[1] !!

فألقوا بالتراب على وجهه الشريف ﷺ .

فراحت فاطمة (رضى الله عنها) تنفض عنه الغبار ، وتشتم أولئك الذى آذوه ، لقد رأت رجلًا من المشركين يأخذ بمجمع رداء أبيها ، فأفقدها المنظر النطق ، فلم تستطع أن تنطق بكلمة ، وقام أبو بكر (رضى الله عنه) وهو يقول : يا قوم ، أتقتلون رجلًا أن يقول : ربى الله ! فقاموا إليه ، وجذبوه من لحيته ، وأشبعوه ضرباً ، ولم يتركوه إلّا وقد أسالوا دماءه .

لقد ترك محمد ﷺ القوم ، وغادر البيت الحرام ، ومشى فى طريقه ، وفاطمة (رضى الله عنها) تتبعه عن قرب ، والناس يلقونه فيكذبونه ويؤذونه ، وفاطمة (رضى الله عنها) تبكى من أجله حتى يدخل بيته .

---

(١) تغليق التعليق (١١١٦) .

ومرة سارت خلفه حتى دخل البيت الحرام ، وقد امتلأ البيت بالمشركين ، حتى إذا خرّ ساجداً لله ، جاء عقبة بن أبى معيط بسلى جزور ، فوضعه على ظهر رسول الله ﷺ ، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة (رضى الله عنها) ابنته فرفعته ودعت على من صنع ذلك ، وإذ ذاك رفع النَّبىّ ﷺ رأسه وقال : « اللَّهُمَّ عليكَ الملأ من قريش ، اللَّهُمَّ عليكَ أبا جَهْل بن هشام ، وعُتبة بن رَبيعَة ، وشَيبة ابن ربيعة ، وعُقْبة ابن أبى معيط ، وأُبىّ بن خلف » [1] .

كان المشركون يخافون من دعاء النَّبىّ ﷺ ، فلما دعا عليهم أصابهم وجوم فغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته ، ورجع إلى بيته تصحبه ابنته فاطمة (رضى الله عنها) .

★ ★ ★

كان لفاطمة (رضى الله عنها) منزلة كبيرة عند رسول الله ﷺ ، فكان يضرب بها المثل فى الناس :

فحينما أراد أن يبين للناس قيمة العمل عند الله ، وأنه لا ينفع عند الله شىء إلّا العمل بما جاء به الشرع ضرب المثل بـ(فاطمة) فقال ﷺ : « يا فاطمة بنت محمد اعملى فلن أغنى عنك من الله شيئاً » [2] .

ولما سرقت امرأة من قريش بعد أن أسلمت ، وأراد النبى ﷺ أن ينفذ فيها حَدّ السرقة فتقطع يدها فأشفقت قريش أن تقطع يدها ، فاستشفعوا بأُسامة بن زيد (رضى الله عنهما) ليشفع فيها ، وكان رسول الله ﷺ يقبل شفاعته لكنه رده وقال : « أتكلمنى فى

---

(١) البخارى (٢٩/١) .   (٢) البخارى (٨/٤) .

حدٌّ من حدُود الله ، والله لو سَرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها »[1] .

وجاء دور المقاطعة ، وأمسكت فاطمة بيد رسول الله ﷺ وهى تدخل معهم شعب بنى هاشم ، ولا تدرى ما سيكون بعد ذلك ، لقد انقطعت صلتهم بالخارج فلا يبيعون لهم شيئاً ، ولا يشترون منهم شيئاً ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يزوجونهم ، حتى الطعام منعوه عنهم ، وأحكموا عليهم الحصار فأثر ذلك فى صحة السيدة فاطمة (رضى الله عنها) وظلت تعانى منه زمناً طويلًا ، أما السيدة خديجة (رضى الله عنها) فقد تعرضت من ذلك للهزال والمرض الشديد فخرجت تعتمد على كتفى ابنتيها أُم كلثوم وفاطمة (رضى الله عنهما) ، وظلت تعانى من المرض حتى لاقت ربها .



خلا البيت بموت السيدة خديجة (رضى الله عنها) من أكبر مؤنس لمن يعيش فيه ، وأصبحت فاطمة الصغيرة (رضى الله عنها) من أكثر من يهتم بأبيها ﷺ بجانب أُم كلثوم ، وأُم أيمن (رضى الله عنهما) ، كانت تهتم به فى غدوه ورواحه ، وترد أحياناً على من يريد النيل من أبيها ﷺ عليه ، وبخاصة بعد موت عمه أبى طالب .

وهى لا تنس السَّفيه الذى اعترضه ، فرمى على رأسه التراب ، فماذا صنع ﷺ دخل بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه ابنته فاطمة (رضى الله عنها) ، وجعلت تنفض عنه التراب ثم تغسل مكانه ، وهى متأثرة من شدة البكاء ، فراح النَّبىّ ﷺ يُخفف من

---

(١) النسائى (٨٣/٨) .

آلامها ، ويهون عليها من أمر هؤلاءِ السفهاء ، ويقول وهو ينظر إليها والدموع تَنْهَمر من عينيها : « لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك » .

وهكذا نرى السيدة فاطمة (رضى الله عنها) قد قامت بدورها الكبير فى مكة فى الدِّفاع عن أبيها خير قيام ، وبخاصة بعد موت أُمِّها ، فضاعفت الجهد ، وتحملت العبء الكبير ، فصابرت ورابطت ووقفت بجوار والدها العظيم ﷺ .

فلا غرو أن يقابل الرسول ﷺ كل هذا بالحب والعطف والحنان الزائد والذى كانت فاطمة (رضى الله عنها) فى أشد الحاجة إليه بعد فقد أُمِّها ، فلا عجب أن يفردها أبوها ﷺ بقوله : « فاطمة قطعة منى يؤذينى ما يؤذيها ... » [1] .



كان لابد من الهجرة من مكة ، وترك العذاب والإهانة ، فتتابعت هجرة الصحابة إلى يثرب ، وبعدها هاجر المصطفى ﷺ وصاحبه أبو بكر - رضى الله عنه - ، ووجد من أهل يثرب كل حب وإخلاص ، وما أن استقر به الحال حتى أرسل إلى مكة من يأتى بفاطمة وأُم كلثوم (رضى الله عنهما) ... ويصحبهما إلى يثرب ، وما يزال المشركون يتحرشون بآل محمد ﷺ ، فيقال : إن (الحويرث القرشى) نخس الدابة التى كانت تحمل السيدة فاطمة وأُختها أُم كلثوم (رضى الله عنهما) فرمت بهما الدابة على طريق الصحراء بين مكة ويثرب وأثرت على ساقيهما ، فلما علم رسول الله ﷺ بما حدث من الحويرث اختزنها له ، حتى كان يوم الفتح

---

(١) السلسلة الصحيحة (١٩٩٥) .

الأعظم ، أشار إلى أصحابه بقتل الحويرث حتى ولو تعلق بأستار الكعبة من جراء فعلته الذميمة ، فبحث عنه على بن أبى طالب حتى وجده فقتله .

لم يتقدم إنسان بعينه ليخطب السيدة فاطمة (رضى الله عنها) ، فالأحداث شغلت المسلمين ، وأمر الدعوة طغى على كل شيء ، وقاربت السيدة فاطمة (رضى الله عنها) الثامنة عشر ، وما أن استقرت الأمور بالمدينة حتى رأى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - أن يكون له الشرف أن يناسب الرسول ﷺ ، فيتزوج ابنته ، فأراد أن يخطبها ، فقال له ﷺ : « انتظر بها القضاء » .

فذكر ذلك أبو بكر لعمر - رضى الله عنهما - ، فقال عمر : ردك يا أبا بكر .

ثم إن أبا بكر قال لعمر : اخطب فاطمة إلى النبى ﷺ ، فخطبها فقال له مثل ما قال لأبى بكر : « انتظر بها القضاء »[1] .

علم الناس بما كان من أبى بكر وعمر (رضى الله عنهما) ، فقال نفر من الأنصار لعليّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) : عندك فاطمة (رضى الله عنها) ، فأتى رسول الله ﷺ فسلم عليه .

فقال ﷺ : ما حاجتك يا ابن أبى طالب ؟

فذكر عليّ فاطمة ، فقال رسول الله ﷺ : « مرحباً وأهلاً » ولم يزد .

فخرج عليّ (رضى الله عنه) إلى أولئك الرّهط من الأنصار ، وهم ينتظرونه .

---

(١) طبقات ابن سعد (١٢/٨) .

فقالوا : ما وراءك ؟

قال عليّ (رضى اللّه عنه) : ما أدرى غير أن رسول الله ﷺ قال لى : مرحباً وأهلًا .

قالوا : أيكفيك من رسول الله ﷺ إحداهما : أعطاك الأهل ، وأعطاك المرحب ؟

وفى اليوم التالى ، وقف قريباً من رسول الله ﷺ فألقى عليه السلام ثم قال : « أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته ، فقلت : والله ما لى من شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه » .

فالتفت إليه النبىّ ﷺ برفق وحنان ثم سأله : « وهل عندك شىء » ؟

رد عليه عليّ (رضى اللّه عنه) قائلًا : « لا ، يا رسول الله » .

قال له الرسول ﷺ : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ » .

قال عليّ (رضى اللّه عنه) : « هى عندى يا رسول الله » .

قال ﷺ : « فأعطها إياها ... » .

فلما جاء عليّ (رضى الله عنه) بالدِّرع أمره الرسول ﷺ أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها [١] .

علم عثمان بن عفّان (رضى الله عنه) بما كان بين النّبىّ ﷺ ، وعليّ (رضى الله عنه) فاشترى الدِّرْع بأربعمائة وسبعين درهماً .

أخذ النّبىّ ﷺ ما دفعه عليّ ، فأعطاها لبلال (رضى الله

---

(١) طبقات ابن سعد (١٢/٨) ، وبنات النبى ﷺ (ص ١٥٣) .

عنهما) ، ليشترى ببعضها طيباً وعطراً ، ثم يدفع الباقى إلى أُم سلمة (رضى الله عنها) لتشترى ما يحتاج إليه العروسان من متاع وغيره .

دعا ﷺ صحابته ، فأشهد على زواج علىّ من فاطمة (رضى الله عنهما) ، وختم عقد الزواج بالدعاء لهما بالبركة وبالذرية الصالحة ...

ثم قَدَّم النَّبىّ ﷺ لهما التَّمر واللَّبن ...

★ ★ ★

كان هذا العقد فى رجب من السنة الأُولى للهجرة ، فما أن أهلّ المحرم من السنة الثانية ، حتى كان علىّ (رضى الله عنه) قد أعدّ المنزل لاستقبال العروس .

واحتفل الصحابة جميعاً بهذا الزواج ، وفرحت المدينة كلها بهذه المناسبة السعيدة ، فنحرت الذبائح ، وأُطعم كل من كان فى المدينة ، وبعد صلاة العشاء مشى رسول الله ﷺ إلى دار علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، فدعا بإناء فيه ماء ، فقرأ عليه بعض آى الذكر الحكيم ، ثم أمر العروسين أن يشربا منه ، وتوضأ بالباقى ، ونثره على رأسيهما ، ثم دعا لهما قائلًا : « اللَّهُمَّ بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما »[1] ، ثم تركهما ، وهو على يقين أنه ترك ابنته وحبيبته عند أقوى الناس إيماناً ، وأكثرهم علماً ، وأفضلهم أخلاقاً ، وأعلاهم نفساً ...



عاشت السيدة فاطمة مع سيدنا علىّ - رضى الله عنهما -

---

(٢) طبقات ابن سعد (١٣/٨) .

على علو قدرها وشرف نسبها عيشة فيها بؤس ومشقة ، عيشة ضنك وشدة ، فقد جرّت بالرّحى حتى أثرت فى يدها ، واستقت بالقربة حتى أثرت فى نحرها ، وكنست البيت حتى أغبرت ثيابها ، هذا وقد كفاها علىّ الخدمة خارج البيت .

ثم قال لأُمه فاطمة بنت أسد بن هاشم : اكفى بنت رسول الله ﷺ الخدمة خارج البيت ، وسقاية الماء والحاجة ، وتكفيك العمل فى البيت من العجين والخبز .

ولما علم علىّ (رضى الله عنه) أن النَّبىّ ﷺ قد جاءه خدم ، قال لفاطمة (رضى الله عنها) : لو أتيت أباك فسألته خادماً ؟

فأتته ... فقال النَّبىّ ﷺ : ماجاء بك يا بنية ؟

قالت : جئت لأُسلم عليك ، واستحيتْ أن تسأله ، ورجعت .

فأتاها رسول الله ﷺ من الغد ، فقال : ما كانت حاجتك ؟

فسكتت ... فقال علىّ : أنا أُحدثك يا رسول الله ، جرت الرَّحى حتى أثرت فى يدها ، وحملت القِرْبَة حتى أثرت فى نحرها ، فلما أن جاءك الخدم أمرتُها أن تأتيك فتستخدمها خادماً يقيها التَّعَب ، وما هى فيه من الشِّدة .

فقال النَّبىّ ﷺ : « والله لا أعطيكما ، وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكنى أبيعهم ، وأنفق عليهم أثمانهم » .

فرجع ... فأتاهما النَّبىّ ﷺ وقد دخلا فى قطيفتهما إذا غطيا أقدامهما ، تكشف رأساهما فثارا .

فقال النّبىّ ﷺ : مكانكما ألا أخبركما بخير ممَّا سألتمانى ؟

فقالا : بلى .

قال النّبىّ ﷺ : كلمات علمنيهن جبريل – عليه السلام – :

« تُسَبِّحان الله فى دُبر كل صَلاَة عشراً ، وتُحَمدان عشراً ، وتُكَبِّران عشراً ، وإذا آويتما إلى فراشكما تُسَبِّحان ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين ، وتُكَبِّران ثلاثاً وثلاثين ... »[1] ، ثم ودعهما ومضى ، فما زالت فاطمة وعلىّ (رضى الله عنهما) يواظبان على ترديدها طول حياتهما .

★ ★ ★

كان أحياناً يقع بين فاطمة وعلىّ (رضى الله عنهما) شىء من الخلاف ، وكثيراً ما يكون سببه علىّ (رضى الله عنه) ، فقد قالوا عنه : « كان فيه شدة أقربَ أن تكون صرامة ، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة ، وحزماً يكاد يكون صلابة » .

وكانت – رضى الله عنها – فى حاجة إلى يد حانية رقيقة تأسو جراحها ، وتنسيها ما لقيت فى مستهل صباها من متاعب وآلام فى حياتها وهى فى مكة ...

وكثيراً ما كان النّبىّ ﷺ يُسرع إليهما ليقضى على الخلاف الذى يقع بينهما ، ويحاول جهده أن يردهما إلى الصواب والتعقل .

روى أنه ﷺ رئى ذات مساء وهو يسعى إلى دار ابنته فاطمة (رضى الله عنها) ، بادى الهم والقلق ، فأمضى وقتاً هناك ، ثم خرج

---

(١) مسانيد (٣٣/٢) .

ووجهه الكريم يفيض بشراً ، فقال قائل من الصحابة : يا رسول الله ! دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك !

فأجاب ﷺ : وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلىّ ؟ . . .

★ ★ ★

كانت السيدة فاطمة (رضى الله عنها) أحياناً تهدد بأن تشتكى عليًا (رضى الله عنه) إلى رسول الله ﷺ حينما يضيق بها الحال ، قالت له مرة : « والله لأشكونك إلى رسول الله ... » .

ثم خرجت وخرج علىّ (رضى الله عنه) فى أثرها حتى جاءت أباها ، فشكت إليه ما لاقت من زوجها ، ... ولكن الرسول ﷺ يلطف ما بينهما بالكلمة الحلوة ، ويدعوهما إلى التحلى بالصبر والمودة .

★ ★ ★

ولما كان المجتمع العربى مجتمع التزاوج ، فالرجل يجمع بين أكثر من زوجة ، فَلِما لا يكون علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) مثلهم ؟ مثل أبى بكر ، وعمر (رضى الله عنهما) وغيرهم ، ممّن يجمعون بين أكثر من زوجة لكنه أخطأ الاختيار حينما أراد أن يتزوج عَلَى فاطمة بنت النّبىّ محمد ﷺ ، فقد مال قلبه إلى بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى الذى كان يسمى أبا جهل ، والذى له تاريخ أسود فى أول الدعوة إلى الإسلام ، فهو الذى كان يؤذى رسول الله ﷺ بالقول ، بل لقد حمل حجراً ليضرب به رأس رسول الله ﷺ لولا أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - حفظه وأبعد عنه تلك الفعلة الذميمة ، وهو الذى لاقى المسلمين منه الإهانة بالقول

وأحياناً بالضرب ، ولا ينسى تاريخ الإسلام ما فعله بأسماء بنت أبى بكر وقت مطاردة النّبىّ ﷺ وتهديده بالقتل ، وكان ﷺ قد عزم على الهجرة إلى المدينة ، فقد ذهب أبو جهل إلى بيت أبى بكر (رضى الله عنه) حينما فقدوا النّبىّ ﷺ فى موضعه الذى ينام فيه ، وفشلت المؤامرة الكبرى التى كان يتولى تنفيذها لقتل محمد ﷺ والخلاص منه ، جرى إلى دار أبى بكر (رضى الله عنه) لعلمه أن أبا بكر (رضى الله عنه) لا يفارق النّبىّ ﷺ ، طرق الباب ، نادت أسماء (رضى الله عنها) : مَنْ الطّارق ؟

قال : افتحى يا بنت أبى بكر .

قالت : مَنْ أنتَ ؟

قال : أنا عمرو بن هشام .

قالت : وماذا تُريد ؟

قال : افتحى حتى أتكلم معك .

ولما فتحت أسماء الباب سألها أبو جهل : أين ذهب أبوك ؟

قالت : لا علم لى به ، ولا أعرف أين ذهب .

قال : هل ذهب وحده أم كان معه أحد ؟

قالت : لا علم لى بذلك .

فلما لم يجد فائدة من الغرض الذى يسعى إليه ، ضربها على وجهها حتى قطع أُذنها وسقط القرط منها .

وعشرات المواقف التى أساء فيها أبو جهل إلى النّبىّ ﷺ وإلى المسلمين والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى حتى لقد طلب رسول الله ﷺ من الصحابة أن يطلبوا أبا جهل ويحث المسلمين يوم غَزْوَة

(بَدْر) على قتله ، حتى قُتِلَ وجيء برأسه إلى مكان قيادة المسلمين .

فهل تكون بنت هذا الرجل السَّفيه ضُرَّة لفاطمة بنت سيدنا رسول الله ﷺ ...؟

إن هذا ما لا يرضاه أحد ، فلا غرابة أن يأبى رسول الله ﷺ ذلك ، وأن يشتد غضبه على ابن عمه ، وأن يظهر هذا الغضب فى خطبته فى جمع من أصحابه ، فيصعد على منبر المسجد النبوى فيقول : « ... إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، اللَّهُمَّ إلَّا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإن ابنتى بضعة منى يريبنى ما أرابها ، ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها ... »[1] .

أفاق علىّ (رضى الله عنه) من غفوته ورجع إلى صوابه وترك خطبة بنت أبى جهل .



عاد الهدوء والسكينة إلى بيت (الزهراء) (رضى الله عنها) ، وذهبت النّزوة التى أصابت عليًّا (رضى الله عنه) ، وندم على ما كان منه ، وتفرَّغَتْ فاطمة (رضى الله عنها) لتربية أولادها الحسن والحسين ، وزينب وأُم كلثوم (رضى الله عنهم) ، ولقد قرت بهم عين النَّبىّ ﷺ ، فأعطاهم من حُبه وعَطْفه وحَنَانه الكثير ، إكراماً لأُمهم (الزهراء) (رضى الله عنها) ، ويروى لنا التاريخ أكثر من قصّة :

---

(١) خ ٧ : ٤٧ ، م فضائل الصحابة ٩٣ .

مشى النَّبىّ ﷺ مرَّةً فى السوق حاملًا أحد حفيديه على كتفه ، حتى إذا بلغ المسجد وأُقيمت الصلاة ، وضعه جانبه فى رفق ، وأقبل يؤم المسلمين حتى إذا انتهى من صلاته قال له أحد أصحابه : يا رسول الله ! إنكَ سَجَدْت سجدة أطَلْتَها حتى ظَنَنَّا أنه قد حدثَ أمر ، أو أنه يُوحى إليك ...

فقال ﷺ : « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابنى ارتحلنى ، فكرهت أن أُعَجِّله حتى يقضى حاجته » [1].

ولا ينسى التاريخ يوم أن كان رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس ، فجاء الحسن والحسين (رضى الله عنهما) عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل النَّبىّ ﷺ من أعلى المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال يخاطب الصحابة : صدق الله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ... ﴾ [2] ، نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى وحملتهما ! ...

كثيراً ما كان ﷺ ينادى الحسن والحسين (رضى الله عنهما) بالبنوة له ، وكان يقول لفاطمة – رضى الله عنها – : « ادعى لى ابنى ... فإذا ما جاء إليه شمّهما وضمهما » .

وروى عن أُسامة بن زيد (رضى الله عنه) قال : « طرقت باب النَّبىّ ﷺ فى بعض الحاجة ، فخرج رسول الله ﷺ وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو ، فلما فَرَغْت من حاجتى ، قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه يا رسول الله ؟ فكشفه ، فإذا الحسن

---

(١) النسائى (٢/٢٢٩ ، ٣ : ٢٢) . (٢) سورة التغابن ، الآية (١٥) .

والحسين (رضى الله عنهما) ، وقال : « هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللَّهُمَّ إِنِّى أُحبهما وأُحب مَنْ يُحبهما »[1] .

ويروى أن النّبىّ ﷺ دخل على ابنته فاطمة (رضى الله عنها) وزوجها وقد غلبهما النُّعَاس ، والحسن (رضى الله عنه) يبكى ويطلب طعاماً ، فلم يهن على جدّه ﷺ أن يُوقظ فاطمة أو عليًّا (رضى الله عنهما) ، فذهب إلى غَنَمة كانت تقف فى ساحة الدَّار فَحَلَبهَا وسَقَى الحسن (رضى الله عنه) من لبنها حتى ارْتَوَى !

ومرّ النَّبىّ ﷺ يوماً بالبيت وهو متعجِّل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسن (رضى الله عنه) ، فدخل يقول لابنته معنفاً : « أوما علمت أن بكاءه يؤذينى » .



وتشهد فاطمة – رضى الله عنها – فتح مكة مع أبيها ﷺ ، وقد خرج النَّبىّ ﷺ فى عشرة آلاف من أصحابه ، دخل مكة بهذا العدد الكبير ، وتذكرت يوم خرج من مكة ومعه أبو بكر ، والآن يعود إليها بعد ثمانى سنوات منتصراً .

استسلمت فاطمة (رضى الله عنها) للذكريات الماضية ، وهى مزهوة بأبيها ﷺ شاكرة الله – عَزَّ وَجَلَّ – على ما سدد وأنعم ، فقد أصبحت مكة كلها مؤمنة بالدعوة إلى الإسلام ، وإطاعة الرسول ﷺ فيما أمر ونهى من عند ربه سبحانه وتعالى .

---

(١) مسانيد (٢/٢٤٤) .

ثم عادت من مكة بعد أن أقامت بها شهرين وبعض شهر ، فقد جاءتها فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة وغادرتها مع عليّ وأولادها فى أخريات ذى الحجة من نفس السنة .

لقد كانت فاطمة (رضى الله عنها) سعيدة مع زوجها ووالدها وأولادها ، ولكن السعادة قد لا تدوم طويلًا .

الحمد لله - عَزَّ وَجَلَّ - فقد أكمل الله للناس دينهم ، وأتمّ عليهم النِّعمة ، وبلّغ رسول الله ﷺ ما أمره الله بتبليغه ، وعليه ﷺ أن يستعد للقاء ربه سبحانه وتعالى .

فقد مرض النَّبيّ ﷺ ، وحدثته نفسه أن يخرج فى الليل إلى البقيع حيث مقابر المسلمين وكان معه مولاه أبومُوَيْهبة (رضى الله عنه) ، ثم وقف بين المقابر يخاطب أهلها : « السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنا لكم ما أصبحتم فيه ممَّا أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأُولى » .

ثم قال ﷺ لأبى مويهبة : « يا أبا مويهبة ، إنِّى قد أُوتيت مفاتيح خَزائن الدُّنيا والخُلْد فيها ، ثم الجنَّة ، فخيرت بين ذلك ، وبين لقاء ربِّى والجنَّة » .

قال أبو مويهبة (رضى الله عنه) : بأبى أنت وأُمى ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا ، والخلد فيها ، ثم الجنة .

قال رسول الله ﷺ : « لا والله يا أبا مويهبة ! لقد اخترت لقاء ربى والجنة » .

ثم رجع ﷺ إلى بيته وقد اشتد عليه المرض ، وزادت الحمى

به ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يمشى إلى المسجد ليصلى بالناس ، وليتحدث إليهم ، وكان ممَّا قاله : « إِنَّ عبداً مِنْ عبَاد الله خَيَّرهُ ربّهُ بين الدُّنيا والآخرة ، وبين ما عندهُ فاختار ما عندَ الله » [١].

ثم قال ﷺ : « يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عباءتى التى آويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » [٢]، ودخل بيت عائشة - رضى الله عنها - ، وقد زاد عليه شدة المرض والحمى حتى لقد كانت عليه قطيفة ، إذا وضع عائده يده من فوقها شعر بشدة حر هذه الحمى .

كانت فاطمة - رضى الله عنها - تعوده كل يوم ، وبالرغم ممَّا كان فيه من شدة إلَّا أنها عندما دخلت عليه قبلته ، وكان من قبل إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها فى مجلسه .

قال لها ﷺ : مرحباً يا ابنتى ، ثم أجلسها إلى جانبه وأسر إليها حديثاً فبكت ، ثم أسر إليها حديثاً آخر فضحكت .

وأرادت السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن تعرف هذا السر فى وقته ، فقالت فاطمة - رضى الله عنها - : ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ .

فلما مات ﷺ ذكرت أنه أسر إليها أنه سيقبض فى مرضه هذا فبكت ، ثم أسر أنها أول أهله تلحقه فضحكت .

كان لاشتداد الحمّى به يضعون إلى جواره إناء به ماء بارد ،

---

(١) انظر : كنز العمال (٣٤٩٦١) .
(٢) انظر : كنز العمال (٣٣٧٣٥) .

فما يزال يضع يده فيه ويمسح بها على وجهه ، وكانت الحمّى تصل به حتى يُغْشَى عليه أحياناً ، ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب ، حتى قالت فاطمة - رضى الله عنها - يوماً وقد حز الألم فى نفسها لشدة ألم أبيها ﷺ : واكرب أبتاه !!

فقال ﷺ : « لا كرب على أبيك بعد اليوم »[1] ، يعنى أنه سينتقل من هذا العالم - عالم الأسى والألم - .

فلما تُوفى ﷺ قالت فاطمة (رضى الله عنها) : يا أبتاه أجاب ربًا دعاه ، يا أبتاه مَنْ جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه !!

ولما دُفن رسول الله ﷺ أقبلت فاطمة (رضى الله عنها) على أنس بن مالك (رضى الله عنه) فقالت : يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ ؟ ثم بكت ، وقالت ترثيه :

اغْبرّ آفَاق السَّمَاء وَكُورت ... شَمْس النَّهار وأظلم العصران
فالأَرض من بعد النَّبيّ كَئيبة ... أسفاً عليه كثيرة الرّجفَان
فلتبكه شرق البلاد وغَربها ... ولتبكه مُضَر وكل يمان
يا خَاتم الرُّسُل المبارك ضَوؤه ... صَلَّى عَليكَ مُنَزِّل القُرآن

ووقفت فاطمة - رضى الله عنها - على قبر أبيها ﷺ ، وأخذت قبضة من تراب القبر ، فوضعتها على عينيها وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على مَنْ شم تُربة أَحمَد ... أن لا يشم مدَى الزّمان غَواليا
صُبَّتْ عَليّ مَصَائب لو أنَّهَا ... صُبَّتْ عَلَى الأَيَّام عُدْن لياليا

(١) (هـ/١٦٢٩) .

وكان إذا أصابها شيء بعده ، ذهبت إلى قبره تبثه أشجانها وتقول مخاطبة إياه كأنه ماثل أمامها :

إنَّا فَقَدنَاك فَقْد الأَرض وَابلهَا   وغَابَ مُذ غبت عنَّا الوَحى والكُتُب

فَلَيتَ قَبلكَ كانَ المَوت صَادفنا   لما نعيت وحالت دُونك الكثب

★ ★ ★

لقد شارك الأهل والأقارب والمسلمون فاطمة – رضى الله عنها – الأحزان ، وتقدموا إليها بالمواساة وبالعزاء ، فقالت أروى بنت عبد المطلب عمة النَّبىّ ﷺ تشارك فاطمة (رضى الله عنها) ما نزل بها ، وتذكر ابن أخيها ، وكان ممَّا قالته :

أفاطم – صلى الله رب محمد –   على حدث أمسى بيثرب ثاويا

كأن على قلبى لذكر محمد   وما خفت بعد النَّبىّ المكاويا

أبا حسن فارقته وتركته   فبكِّ بحزن آخر الدّهر شاجيا

وقالت صفية بنت عبد المطلب :

أفاطم بكى ولا تسأمى   بصبحك ما طلع الكوكب

هو المرء يبكى وحق البكاء   هو الماجد السيد الطيب

فأوحشت الأرض من فقده   وأى البرية لا ينكب ؟

★ ★ ★

وكان بعد وفاة النَّبىّ ﷺ أمران لهما صلة بفاطمة – رضى الله عنها – :

الأول (أرض فدك) : وهى من أرض خيبر يسكنها يهود ، لم يكن لهم حصون ، ولم يقاتلهم النَّبىّ ﷺ ، ولكن الله ألقى فى قلوبهم الرعب فاستسلموا .

ثم إنها لم تقسم سهاماً كما قسم إنتاج أرض خيبر ، فكانت مقسمة لله وللرسول ﷺ وذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فكانت كلها للنبىّ ﷺ يعزل منها نفقة أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقى يصرف فى الكراع والسلاح ومصالح المسلمين .

لقد جعلت أرض فدك كأرض بنى النضير والتى جاء بها التنزيل ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

إن أرض فدك لا تقسم مقسم الغنائم فلا يكون للفاتحين المجاهدين أربعة الأخماس ، وإنما يكون مصرفها لله وللرسول ﷺ ولذى القربى واليتامى والمساكين .

ولذلك كان يصرفها النبىّ ﷺ فى مصالح المسلمين ويبقى له ما يكفيه وأهله فيعزل منها نفقة أهله لسنة .

ولما طلبت فاطمة - رضى الله عنها - إدارة هذه الأرض لا على سبيل الميراث ، وإنما لتتولى ما كان يتولاه رسول الله ﷺ ، ولتأخذ حقها منه ، وسألت الصديق (رضى الله عنه) ذلك ، فذكر لها قول الرسول ﷺ : « لا نورث ما تركناه صدقة » (٢) .

---

(١) سورة الحشر ، الآيتان (٦ ، ٧) . (٢) خ : (٤/٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨) .

وقال – رضى الله عنه – : أنا أعول من كان يعول رسول الله ﷺ وقال : « والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىّ أن أصل من قرابتى » ، ثم قسمها كما كان يقسمها ﷺ ، ورضيت فاطمة (رضى الله عنها) وقبلت من أبى بكر (رضى الله عنه) أن يفعل فى فدك ما كان يفعله النّبىّ ﷺ .

الثانى : هو مبايعة أبى بكر – رضى الله عنه – ، ولا أحد من المسلمين ينكر على أبى بكر اختياره للخلافة ، فقد كان إجماع من المسلمين على هذا الاختيار وقوى هذا الإجماع أمر النّبى ﷺ أبا بكر أن يُصلّى بالناس وهو فى مرض موته ، ثم لم يتخلّف أحد من الذين وجدوا فى سقيفة بنى ساعدة التى اجتمع فيها المسلمون لاختيار من يخلف النّبىّ ﷺ ، وإذا كان علىّ بن أبى طالب ومعه العباس والفضل (رضى الله عنهم) مشغولين بتجهيز رسول الله ﷺ للدّفن ، فليس من شك فى أنهم كانوا لا يبتغون أحداً غير أبى بكر (رضى الله عنه) ، لذلك فقد بايعوه بعد أن أنهوا مهمتهم – رضى الله عنهم أجمعين – .

وما نشك فى أن السيدة فاطمة – رضى الله عنها – كانت موافقة على هذا الاختيار ، وهى التى تعرف منزلة أبى بكر – رضى الله عنه – ، وما قام به من أعمال فى مسار هذا الدين ، وقد سمعت من قول رسول الله ﷺ : « لَوْ كُنت مُتَّخذاً خَليلًا لاتَّخَذْت أبا بكر خَليلًا ، ولكن إِخَاء وصُحبَة »[1] .

وكفى بعبقرية أبى بكر (رضى الله عنه) الدليل على حسن هذا الاختيار .

---

(١) م : فضائل الصحابة ، باب رقم (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧) .

ومرضت فاطمة – رضى الله عنها – بنت رسول الله ﷺ ، وكأنها كانت على ميعاد ، ولازمتها زوجة أبى بكر أسماء بنت عميس (رضى الله عنهما) ، ويقال : إن أبا بكر أرسل زوجته لتكون فى خدمتها ، وزارها الصديق (رضى الله عنه) فى مرضها ، وقد استأذن فأذنت له ، ولم يكن فى قلبها إلّا الوفاء لأعزّ صديق لرسول الله ﷺ ، ولازمتها أسماء بنت عميس (رضى الله عنها) حتى فاضت روحها ، وصنعت لها نعشاً لتحمل عليه .

روى أن أسماء (رضى الله عنها) قالت : يا ابنة رسول الله ﷺ ، ألا أريك شيئاً يصنع بأرض الحبشة ؟ فدَعتْ بجرائد رطبة فحنَّتهَا ، ثم طرحت عليها ثَوباً ، فقالَتْ فاطمة (رضى الله عنها) : ما أَحْسَن هذا وأَجْمَلهُ ! فإذا متّ فاغسليني أنت ، ولا تدخلى علىّ أحداً .

ويقال : إن فاطمة – رضى الله عنها – عندما تُوفِّيت جاءت عائشة – رضى الله عنها – فمنَعتها أسماء ، فَشَكتْهَا عائشة إلى أبى بكر – رضى الله عنه – ، وقالت : إنَّ هذه تحول بيننا وبين بنت رسول الله ﷺ ؟

فقال أبو بكر لأسماء (رضى الله عنهما) : يا أسماء ما حملك على أن منعت أزواج النّبىّ ﷺ أن يدخلن على ابنته وقد صنعت لها هودجاً لم نعهده ؟

قالت أسماء (رضى الله عنها) : هى أمرتنى ألا يدخل عليها أحد ، وأمرتنى أن أصنع لها ذلك .

ويقال : إن الذى غَسّلهَا علىّ وأسماء (رضى الله عنهما) ،

والذى صلَّى عليها الخليفة أبو بكر الصِّديق (رضى الله عنه) ، ودُفنت بالبقيع ، وكانت وفاتها فى اليوم الثالث من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وكان عمرها تسعاً وعشرين سنة .

تركت فاطمة (رضى الله عنها) بعدها ذرية طيبة مباركة ، فقد أنجبت الحسن ، ثم الحسين ، ثم محسن ، ثم زينب ، ثم أُم كلثوم ، ومات محسن وهو صغير - رضى الله عنهم أجمعين - .

★ ★ ★

إنَّ ما قامت به فاطمة - رضى الله عنها - تجاه الدِّين وتجاه رسوله الكريم ﷺ شىء كبير ، سواء فى ذلك ما ذكرناه أم لم نذكره ، استحقت أن تكرم فى حياتها وبعد مماتها ، وكان فضلها عظيماً ، ورد فيه أحاديث عن رسول الله ﷺ .

فقد روى أبو هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بن خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ »[1] .

وهذا الحديث روى من طرق كلها صحيحة ، وكفى بذلك فخراً واعتزازاً ، رحمها الله ورضى عنها .



(١) انظر : « كنز العمال » (٣٤٤٠٤) .

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٩٩٤٣ / ١٩٩٦

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١

دار الفضيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس: ٤١٨٩٦٦٥

المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١

الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية:

دار الاعتصام

للطباعة والنشر والتوزيع

الحمياني عبد الكريم

35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس) - الدار البيضاء

الهاتف 30 42.85 - الفاكس 44.45.39